الرسائل النادرة



لقاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

صاحب كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وغيرها

صححه

حسن الهادي حسين

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م
الطبعة الثانية سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الإيداع ٩٤/٩٢٦٦
الترقيم الدولى
I-S-B-N
977-505-095-15

فهرس مطالب الكتاب وفصوله

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

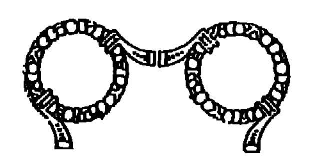
الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين . وبعد فها نحن قد اخترنا لك أيها القارىء العزيز هذه الرسالة النفيسة الموسومة بقوانين الوزارة لتكون الحلقة الخامسة من سلسلة الرسائل النادرة التى تنشرها (مكتبة الخانجى) . وما اخترناها إلا لشهرتها وذيوع اسمها فى كتب التراجم وموضوعات العلوم . وحسبك أنها من تصنيف امام كبير من أئمة الأدب والبيان ومحقق جليل من شيوخ الحكمة والتشريع ، وأعنى به : أبا الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى ، مؤلف (أدب الدنيا والدين) و (الأحكام السلطانية) و (الحاوى) و (الاقناع) وغير ذلك من أمهات الكتب فى الفقه والتفسير والأدب والسياسة . وقد أسميناها (أدب الوزير) لأنها فى الواقع فصول رائعة في آداب الوزارة ورسومها وأحكامها وما للوزير وما عليه نحو سلطانه وبلاده ونفسه . وسوف تجدها متمشية في أسلوبها الرائع ومباحثها الجليلة وفق الخطة التى سار عليها فى كتابه الشهير : (الأحكام السلطانية) . فالرسالة إذن تتمة مباحث ذلك الامام الجليل في فن السياسة وتدبير الملك . وكلا الكتابين مرآة صادقة لتفكير العالم الاسلامى فى هذا الفن الجليل الذى أصبح موضع عناية المفكرين من كتاب هذا العصر .

وقد كان لكتابه الأول (الأحكام السلطانية) حظ وافر من عناية

الناشرين فطبع مراراً فى القاهرة وسواها . أما هـذه الرسالة فبقيت محرومة من هذه العناية ولم تطبع قبل هذه الطبعة — فيما نعلم — مع شدة ارتباطها بالكتاب الأول. واننا لنغتبط اليوم إذ تتقدم بهـا لمحبي الكتب والرسائل من آثار السلف الصالح ويسرنا أن نضيفها إلى مجهود من سبقونا فى نشر (الاحكام السلطانية) . وقد كان اعتمادنا على نسخة مخطوطة فى دار الكتب الملكية ضمن مجموعة من كتب العلامة الشنقيطى والله المسئول أن يمدنا بالتوفيق وحسن المعونة فيما قصدنا .

٥ صفر سنة ١٣٤٨ عبد العزيز أمين الخانجى



ترجمة مؤلف الكتاب

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي ولقبه أقضى القضاة . ولد بالبصرة وتوفى في بغداد ودفن فيها فى مقبرة باب حرب ، والكتب التى اعتمدنا فيها على هذه الترجمة وهى : (وفيات الأعيان) و (الوافى بالوفيات) و (معجم الأدباء) و (تاريخ أبى الفداء) و (طبقات الشافعية) اتفقت جميعها على أن وفاته كانت عام ٤٥٠ هجرية بعد أن بلغ ستا وثمانين سنة ؛ فيكون ميلاده بناء على هذا الاجماع سنة ٣٦٤ هجرية.

قطع الماوردى مراحل حياته الطيبة الحافلة بجلائل الاعمال فى البصرة وبغداد وأعمالها من الأمصار القريبة . وقد كانت تلك الجهات فى ذلك الوقت مسرحاً للفتن والدسائس من الداخل والخارج . ومقام الخلافة فى بغداد من الضعف والوهن وخور العزيمة ، بحيث أصبح الخلفاء آلات مسخرة وأدوات لا قيمة لها بين الترك والديلم . وإليك ما يقوله أبو الفداء فى حوادث سنة احدى وثمانين وثلاثمائة :

« وفي هذه السنة قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة على الطائع لله عبد الكريم وكنيته أبو بكر بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد ابن الموفق بن المتوكل ، بسبب طمع بهاء الدولة فى مال الطائع . ولما أراد بهاء الدولة ذلك أرسل إلى الطائع وسأله الاذن ليجدد العهد به فجلس الطائع على كرسى ودخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه من سريره والخليفة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يغاث وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع » وكان الشريف الرضى حاضراً مهزلة القبض على الطائع وخلعه فبادر بالخروج من دار الخلافة وقال فى ذلك أبياتاً من جملتها :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني

وانك لتقرأ من أخبار ذلك العصر الشيء الكثير عن الفتن بين الشيعة وأهل السنة .

في أوائل حياة الماوردى كانت فتنة القرامطة ومذبحتهم الكبرى فى الكوفة ؛ وفى أواخر أيام صاحب هذه الرسالة كان اشتداد نفوذ الباطنية وشيوع دعوة الحسن بن الصباح : وفى هذه الآونة كانت دولة بنى حمدان فى حلب وحروبهم ومنازعاتهم ؛ وفى هذه الفترة من التاريخ الاسلامى كانت حكومة الفاطميين فى مصر أيام خلافة العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله. أما فى الاندلس فكانت خلافة هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر وحروب المنصور بن أبى عامر وانتصاراته التى شرفت الحكم الاسلامى فى تلك الديار. وقصدنا من هذا الاجمال لحوادث تلك الايام أن ندلك على روح العصر فى الايام التى عاشها الماوردى . ومن أعجب ما يستوقف النظر أن تكون أيام هذه الفوضى من أخصب العصور الاسلامية فى الانتاج الفكرى فى العلوم والفنون والآداب. ولعل السبب في ذلك هو قرب ذلك العهد من النهضة العلمية الكبرى التى وضع الرشيد والمأمون أساسها فى أيام خلافتهما الجليلة الشأن ، تلك الأيام التى تعد بحق العصر الذهبي للاسلام .

مضى ذلك العهد الذهبي ، عهد الحركة العلمية الكبرى ، عهد التدوين والترجمة : وهبت أعاصير السياسة والخلافات مما لا مجال لسرده فى هذه العجالة . ولكن بقى فى أيدى الناس كنوز ذلك العصر ، ومجهودات من تقدمهم من علماء السلف الصالح. أضف إلى ذلك أن الجامعات الاسلامية الكبرى في بغداد والقاهرة وقرطبة ونيسابور وبخارى ، كانت لاتزال محتفظة بنشاطها وجهودها فى سبيل نشر العلوم وأنوار الحكمة والآداب العالية .

و فوق كل ما تقدم فان حكومة آل بويه في بغداد، وحكومة آل حمدان في حلب ودمشق؛ وحكومة الفاطميين فى مصر ، وحكومة المنصور بن أبي عامر في الاندلس : كانت حكومات مشهورة - رغم مشا كلها الداخلية - بتعضيد العلوم والفنون و تقريب العلماء من مجالسها و الأخذ بأيديهم و تشجيعهم. فلا غرو ولا عجب أن ينبغ فى هذا العصر من الفلاسفة والحكماء أمثال : ابن سينا ؛ والخيام ؛ و المعرى . و من النحويين و اللغويين أمثال : القاضى أبو سعيد ابن عبدالله السيرافى النحوى مصنف شرح كتاب سيبويه ؛ والحسين ابن زكريا اللغوى صاحب كتاب المجمل ، وأبو على الحسن بن احمد ابن عبد الغفار الفارسى صاحب الايضاح والتذكير و المقصور والمدود ، وعثمان بن جنى النحوى الموصلى مصنف اللمع ؛ وأبو نصر اسماعيل بن احمد الجوهرى صاحب الصحاح. و من المحدثين و الأئمة أمثال الماوردى «مؤلف الكتاب» ، والصيمرى ، والاسفرايني ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، وأبو طالب محمد بن غيلان صاحب الأجزاء المعروفة بالغيلانيات ؛ وأبو الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي صاحب المختصر المعروف به؛ والبيهقي، والقشيرى ، وابن مخلد الاندلسى . والقاضى أبو بكر بن الباقلانى، والحافظ أبي نعيم صاحب كتاب حلية الأولياء، والحاكم النيسابوري امام أهل الحديث فى عصره.

و من الأدباء و الكتاب أمثال : أبي اسحق ابراهيم الصابى، والخطيب بن نباتة الفارقى، والصاحب بن عباد ؛ و ابن العميد الكاتب الشهير، و الحاتمى صاحب الرسالة الحاتمية التي بين فيها سرقات المتنبى ، والثعالبي صاحب التصانيف المشهورة . و من الشعراء المجيدين أمثال : ابى الحسن الأنبارى صاحب المرثية المشهورة التى مطلعها (علو فى الحياة و فى الممات) ؛ و أبى الحسن محمد بن عبدالله السلامى ومهيار الديلمى ، والشريف الرضى ، و أبي القاسم بن طباطبا .

كل هؤلاء الأعلام النوابغ كانوا معاصرين للماوردى وحسبنا أن نسرد

أسماءهم للدلالة على روح ذلك العصر من الوجهة العلمية . وقد ذكرنا لك فيما سبق أن من العوامل التى أدت الى إحياء هذه النهضة تشجيع الحكام للعلماء العاملين ، وقد كان للماوردى نصيب كبير من هذا التشجيع وكان عظيم القدر ، مقدماً عند السلاطين من آل بويه وعند الخلفاء العباسيين .

وقد ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٤١٩ أنه عندما توفى القادر بالله وجلس فى الخلافة ابنه القائم بأمر الله أرسل القائم أبا الحسن الماوردي الى الملك أبى كاليجار فأخذ البيعة عليه القائم وخطب له فى بلاده وذكر كذلك فى حوادث ٤٤٣ أى قبيل وفاة الماوردى بسبع سنين أنه وقعت الوحشة بين القائم وجلال الدولة على أمر من أمور التقاليد فأرسل القائم أبا الحسن الماوردى يوسطه ولم تنفع وساطته . والحادثتان تدلان على ناحية جليلة من نواحى حياة الامام الماوردي من وجهة اتصاله عملياً بالحياة السياسية فى عصره ، وتزيد فى نظرنا من قيمة كتابيه الأحكام السلطانيه وقوانين الوزارة . لأنهما لم يكتبا الا عن روية ولم يصدرا إلا عن حكمة وتجربة ودراية . ويؤخذ من مقدمة الأحكام السلطانية أنه لم يشرع فى كتابته إلا بعد أن عظم قدره وأصبح مقدماً عند السلطان حيث لم يصنفه إلا امتثالا لأمره فانه يقول : « ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الامور أحق ؛ وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير ، أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه الخ .. »

ولهذه الكلمات قيمتها فى دحض تلك الفرية التى ذكرها الصفدى فى الوافي بالوفيات وابن خلكان فى وفيات الأعيان ونقلها صاحب طبقات الشافعية بتحفظ وتتلخص: فى أن الأمام الماوردي لم يظهر شيئاً من تصانيفه فى حياته وإنما جمعها كلها فى مكان واحد ولما دنت وفاته قال لشخص يثق اليه : « إن كتبي لم أظهرها لأنى لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر فاذا عاينت

الموت و وقعت فى النزع فاجعل يدك في بدي فان قبضت عليها و عصرتها فاعلم انه لم يقبل منى شئ منها فاعمد الى الكتب و ألقها فى دجلة و ان بسطت يدي ولم أقبضها فاعلم أنها قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت ارجوه من النية الخالصة » وكان بعد ذلك أن بسط يده فاظهر ذلك الانسان كتب الامام .

ولامراء عندى في أن هذا الحديث مختلق فان اماما جليل القدر مثل الماوردى وفى عصر مثل عصر الماوردى ، وقد اشتدت فيه المنافسة بين العلماء والادباء والكتاب ، تربأ به همته العالية أن يفكر في مثل هذا الأمر. وما لنا نذهب بعيداً وهاهى مقدمة كتابه الأحكام السلطانية تدل على أنه ألفه امتثالا لأمر من لزمت طاعته . وقد ذكر الصفدي قبل هذه الحكاية قصة أخرى تدل على أن تصانيف الماوردى كانت معروفة ومشهورة بل تدل على أنه كان ينافس غيره من علماء العصر في التأليف والتصنيف فان الصفدي يقول فى الوافى بالوفيات : « وكان القادر قد تقدم الى أربعة من الأئمة فى المذاهب الاربعة ليضع له كل واحد مختصراً فى الفقه فوضع الماوردي الاقناع ووضع القدورى مختصره ووضع عبد الوهاب المالكى مختصراً ووضع أحد الحنابلة أيضاً مختصراً وعرضت عليه فخرج الخادم إلى الماوردي وقال له . قال لك أمير المؤمنين : حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا » .

ومن مصنفاته تفسير القرآن وسماه النكت(١) . و كتاب الحاوي فى الفقه يدخل فى عشرين مجلداً (٢) ، والاقناع وقد مر ذكره ، وأدب الدنيا والدين،

---

(١) موجود منه نسخة فى المكتبة العمومية بميدان بايزيد بالقسطنطينية

(٢) موجود فى مجموعة كتب أحمد طلعت بك نسخة كاملة بعض أجزائها من مخطوطات المائة السادسة وقد آلت تلك المجموعة الى دار الكتب المصرية

والاحكام السلطانية (١)؛ وتعجيل النصر وتسهيل الظفر؛ وكتاب فى النحو (٢).

وانه لموفق في جميع كتبه لسهولة عبارته وحسن تعبيره وجميل ديباجته وما زال كتاب أدب الدنيا والدين المقرر للمطالعة فى المدارس المصرية من أروج الكتب فى عصرنا هذا. وقد أجمع الذين ترجموا حياته أنه كان اماماً ثقة في الفقه والتفسير، ورعاً فى دينه، مجاهداً لنفسه مجتهداً لامقلداً. ذكر الصفدي فى (الوافي بالوفيات) أنه كان قد سلك طريقاً فى توريث ذوي الارحام القريب والبعيد سواء فجاء اليه كبير من الشافعية فقال له اتبع ولا تبتدع. فقال: « بل اجتهد ولا أقلد » فانصرف عنه.

ومن كلام الماوردي الدال على دينه ومجاهدته لنفسه: ما ذكره فى كتاب أدب الدنيا والدين، فقال: « ومما أنذرك به من حالى، انى صنفت فى البيوع كتاباً جمعته ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسى؛ وكررت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل، وكدت أعجب به؛ وتصورت أنى أشد الناس اطلاعاً بعلمه؛ حضرنى وانا فى مجلسى اعرابيان، فسألانى عن بيع عقداه فى البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لشيء منها جواباً، فاطرقت مفكراً، وبحالى وحالهما معتبرا. فقالا: أما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا، فقالا: إيهاً لك!.. وانصرفا. ثم أتيا من قد يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه، فأجابهما مسرعا بما أقنعهما، فانصرفا عنه راضيين بجوابه، حامدين لعلمه ». إلى أن قال: « فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظيمة، تذلل لهما قياد النفس، وانخفض لهما جناح العجب ».

---

(١) أول من عنى بطبعه الموسيو مقس أنقر وطبعها بمدينة بن سنة ١٨٥٣ م سنة ١٢٦٩ هـ.

(٢) قال ياقوت فى معجم الأدباء: اطلعت عليه وهو فى مجلد حجم الايضاح لأبى على الفارسى

ومن المسائل البارزة فى حياة الماوردى اتهامه بالاعتزال. قال ابن الصلاح: هذا الماوردى عفا الله عنه وقد كنت لا أحقق ذلك عليه، وأتأول له، وأعتذر عنه فى كونه يورد في تفسيره فى الآيات التى يختلف فيها أهل التفسير، تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة: غير متعرض لبيان ماهو أحق منها، ويقول صاحب طبقات الشافعية تعقيباً على قول ابن الصلاح: «وأقول لعل قصده ايراد كل ما قيل من حق أو باطل، ولهذا يورد من أقوال المشبهة أشياء مثل هـذا الايراد، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة» إلى أن يقول: «ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم فى جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل: (وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وغير ذلك ويوافقهم فى القدر وهى البلية التى غلبت على البصريين وعيبوا بها قديماً» إلى هنا ينتهى قول ابن الصلاح وقول صاحب الطبقات فى مسألة اعتزال الماوردى.

ولعمرى إن هذه الأقوال لتدلنا على مزية جليلة من مزايا الامام الماوردى وترفع بقدره فى نظرنا لأنها برهان ساطع على أن الرجل لم يكن رجل علم وأدب فحسب. بل هو فوق ذلك وأفضل من ذلك، رجل بحث وتحقيق ورجل البحث يطلب الحقيقة. والحقيقة هى ضالته أينما وجدها فليس بضائره أن يجد وجهاً من وجوهها فى أصول المعتزلة؛ وان يوافقهم عليها وأن يجتهد فى غيرها من الحقائق عند أهل السنة، لأنه كان من أئمة المجتهدين وكبار الباحثين فى الحقائق، شأنه فى ذلك شأن جميع العلماء العاملين من رجال السلف الصالح، طيب الله ثراهم وألهب فى نفوس الشباب الناهض من أبناء العروبة حماس الاقتداء بهم

عبد العزيز أمين الخانجى

أدب الوزير للماوردي
المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك

لقاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

صاحب كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وغيرها

بسم الله الرحمن الرحيم

(و به نستعين)

قال الامام؛ قاضى القضاة أبو الحسن، على بن محمد بن حبيب الماوردى رحمه الله تعالى برحمته: الحمد لله على ما هدي و أرشد، و له الشكر على ما وفق و سدد. و صلى الله على رسله الطاهرين، و أوليائه البررة المنتخبين، و سلم تسليما كثيراً.

أما بعد؛ فقد التزم الطاعة من دعا اليها، وفعل الخير من أرشد اليه، ولئن كانا فى جبلة ذوي الفضل مركوزين، فما يستغني الفطن بذكائه عن يقظة منبه، ولا يكتفي اللبيب بحزمه عن عظة مذكر؛ لأن الهوي معترض يخدع بغرامه؛ و يحتجب بغمامه. و أنت أيها الوزير - أمدك الله بتوفيقه - فى منصب مختلف الاطراف؛ تدبر غيرك من الرعايا و تتدبر بغيرك من الملوك؛ فأنت سائس مسوس؛ تقوم بسياسة رعيتك و تنقاد لطاعة سلطانك، فتجمع بين سطوة مطاع و انقياد مطيع، فشطر فكرك جاذب لمن تسوسه؛ و شطره مجذوب لمن تطيعه و هو أثقل الاقسام الثلاثة محملا، و أصعبها مركباً، لأن الناس: ما بين سائس؛ و مسوس، و جامع بينهما. و لك هذه الرتبة الجامعة. فأنت تجمع ما اختلف من أحكامها، و تستكمل ما تباين من أقسامها، و بيدك تدبير مملكة صلاحها مستحق عليك، و فسادها منسوب اليك. تؤاخذ بالاساءة ولا يعتد لك بالاحسان، تلاان لك المبادىء بالارغاب؛ و تشدد عليك الغايات بالاعتاب، مستظهرا تستكفي اعتداد الاحسان اليك؛ و تسلم من غب المؤاخذة لك، و يلزمك ضدها في حق سلطانك أن لا يعتدى عليه بصلاح ملكه، لأنك للصلاح مندوب، ولا تعتذر اليه من

اختلاله ، لأن الاختلال اليك منسوب . واجعل اعتذارك سعيك واجتهادك، فلسان الفعال انطق من لسان المقال ، اظهر شواهده . فان عارضتك الاقدار عذرتك القلوب ، وان لم تنطق به الافواه ، لعجز الخلق عن قضاء الحق ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يغني حذر عن قدر . وقيل فى منثور الحكم : توق كل التوقى ولا حارس من الأجل ، وتوكل كل التوكل ولا عذر فى التغرير ، واطلب كل الطلب ولا تسخط لما جلب المقدور . ولأن تكون ان ملكت اختيارك متاركا فى زمان الكدر ؛ أولى من أن تكون مغالباً للقدر . وقد قيل فى منثور الحكم : ماكان عنك معرضاً ؛ فلا تكن له متعرضاً . فان دعاك الاضطرار إلى الملابسة ، فان للزمان ولا تخاشنه . فقد قال بعض الحكماء : من سعادة الانسان أن لا يكون عند فساد الزمان مدبراً للزمان ؛ فسامح وقتك ان جار ، وغالطه ان ثار كما قال الشاعر :

فاخط مع الدهر إذا ماخطا واجر مع الدهر كما يجرى

والله تعالى يمد بالمعونة من وفقه ، وأرجو أن تكون منهم .

واعلم أيها الوزير انك مباشر لتدبير ملك له أس . هو الدين المشروع . ونظام . هو الحق المتبوع . وقد قيل : منازع الحق مخصوم ، فاجعل الدين قائدك ، والحق رائدك ، يذلل لك كل صعب ، ويتسهل عليك كل خطب ؛ لأن للدين أنصارا ، وللحق أعوانا ؛ إن قعدت عنك أجسادهم ؛ لم تقعد عنك قلوبهم . وحسبك أن تكون القلوب معك . وقيل لبعض الحكماء : أي الجند أوقى ؟ قال : الدين . قيل : فأي العدد أقوى ؟ قال : العدل . وللدين سلطان قد انقادت اليه امامته ، واستقرت عليه دعامته ، فاجعله ظهيرا لك فى أمورك ، وعونا لك على تدبيرك ، تجد من القلوب خشوعا ، ومن النفوس خضوعا . فما اعتزت مملكة اليه إلا صالت ، ولا تحققت بشعاره إلا طالت . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع امام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى »

واجعل لله تعالى عليك فى خلواتك رقيبى رغب ورهب : تقودك الرغبة الى طاعته ، وتصدك الرهبة عن معصيته، ليسلم باطنك من العيوب، ويخلص سرك من الذنوب . وقد نفسك الى العدل ، ينقد الناس به الى طاعتك ، ويكفوا به عن معصيتك ، ويقتصروا عليه فى مطالبتك ؛ فان من جازف فى الأخذ جوزف فى الطلب ، ومن ناصف نوصف .والعرب تقول فى المجازفة من أمثالها : دخل بيتاً ما خرج منه . وقال السيد المسيح : بالمكيال الذى تكيلون يكال لكم وتزادون. وقال الشاعر :

ومن ظن ممن يظهر السوء أنه   يجازي بلا سوء فقد ظن منكرا

واعلم أنك لن تستغزر موادك الا بالعدل والاحسان ؛ ولن تستندرها بمثل الجور والأساءة ؛ لأن العدل استثمار دائم ، والجور استئصال منقطع . وقد قيل فى منثور الحكم : بالعدل والانصاف ، تكون مدة الائتلاف .

وليس يختص العدل بالأموال دون الأقوال والأفعال.فعدلك بالأموال أن تؤخذ بحقها ، وتدفع الى مستحقها ، لأنك فى الحقوق سفير مؤتمن ؛ وكفيل مرتهن، عليك غرمها ، ولغيرك غنمها .

وعدلك فى الأقوال أن لا تخاطب الفاضل بخطاب المفضول ، ولا العالم بخطاب الجهول ، وتقف فى الحمد والذم على حسب الأحسان والأساءة ، ليكون ارغابك وارهابك على وفق أسبابهما من غير سرف ولا تقصير ، فلسانك ميزانك . فاحفظه من رجحان أو نقصان . وقد قال بعض الحكماء : جعل الله الانسان أفضل الحيوان ، وصير أفضل جارحة فيه اللسان ، فجعله للضمائر ترجماناً ، ولما جمعته العقول والبصائر تبيانا ، وبين الحق والباطل فرقانا ، ولقد قال الاحنف بن قيس : « النطق مسفرة،و الصمت مسترة » وللكلام روية تتقدم على المعانى دون الألفاظ ، فكل المعانى الى رويتك ، وفوض الألفاظ الى بديهتك ، فان ابتكار المعانى خطر ، والروية فى الألفاظ لكن . ولأن يكون الكلام مطبوعا ، أولى من يكون

مصنوعا . إلا أن يكل الخاطربشوائب الهموم . و يكون الـكلام مع ذي قدر عظيم ، فيروى فى الاختصار ، ففى الا كثارعثار ، يفضى الىضجر إن استرذل، و الى ملل إن استثقل . وقد قيل: أول العى الاختلاط، وأسوأ القول الافراط. ولذلك قيل الحصر خير من الهذر ، لأن الحصر يضعف الحجة ، و الهذر يتلف المهجة . وقال عبد الحميد : العاقل للسانه عاقل . وقيل فى منثور الحكم : اذا تم العقل نقص الكلام .

وعدلك فى الافعال أن لا تعاقب إلا على ذنب ، ولا تعفو إلا عن إنابة ، ولا يبعثك السخط على اطراح المحاسن . ولا يحملك الرضا على العفو عن المساوى . حكى عن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه قال: اعطيت ما اعطى الناس ومالم يعطوا؛ وعلمت ما علم الناس و مالم يعلموا. فلم أعط شيئا أفضل من الحق فى الرضا و الغضب . و القصد فى الغنى والفقر . وخشية الله في السر و العلانية . و قد قال بعض الحكماء : « من سكرات السلطان الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، على بعض من يستوجب الرضا . » وكما لا تستوي الحسنة و لا السيئة ؛ كذلك لا يستوي المحسن والمسئ . وقد قيل : أخبث الناس ، المساوي بين المحاسن و المساوي .فاجتذب بافعالك ماناسبها ، وقابل بمجازاتك ماأوجبها ، واجعل جزاءالافعال بحسبها من احسان واساءة ، يستوجب بهما ثواب وعقاب ؛ فان لميلك؛ رضاك حكما سواء ، إن وصلت عليه خرجت عن المجازاة الى التبرع بالصلة ، وأنت فى تبرعك مخير ، وفى مجازاتك مضطر . وقد قال الحسن البصرى : المؤمن لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فى من يحب . فأما التقريب والابعاد : فيجوز أن يعتبر بالسخط والرضا : اذا لم تحط بهما ذوي الاقدار ؛ وترفع بهما أهل الخمول : لأن لك خيارك أن تبتدئ بتقريب من أردت . و ابعادمن كرهت ، اذا سلم رأيك من تقريب ذى النقص و ابعاد دى الفضل : فتستطر بتقريب الناقص وابعاد الفاضل ؛ وان كان التشاكل مركوزا في الغرائز . و قدقال بعض

البلغاء : لاتصطنع من خانه الأصل : ولاتستصحب من فاته العقل : لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح ، ومن لاعقل له : يفسد من حيث يصلح . وذلك مما يعسر توقيه. ويفوت تداركه وتلافيه، وليكن وفاؤك بالوعد حتما، وبالوعيد حزماً ؛ لأن الوعد حق عليك ؛ والوعيد حق لك على غيرك ؛ فكنت فيه على خيارك ، فمن أجل ذلك لم يجز إخلاف الوعد ؛ وان جاز اخلاف الوعيد . وقد قال أحد الشعراء :

وإني وان أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لكن ينبغي أن يقترن بخلف الوعيد عذر حتي لايهون وعيدك ليكون نظام الهيبة به محفوظا ، وقانون السياسة فيه مضبوطا ؛ فأظهره ان خفي لتكون باخلاف وعيدك معذوراً ؛ وبعفوك عنه مشكوراً ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ماازداد أحد بالعفو إلا عزا . وللوعد والوعيد شرطان : أحدهما ، أن يكونا مستحقين ماأوجبهما من احسان واساءة ، والثانى أن تقترن بتقديمهما على الثواب والعقاب مصلحة فى ترغيب وترهيب ؛ فان لزم تقديم الثواب والعقاب على الوعد والوعيد، كان الوعد تقصيراً والوعيد عجزاً. وقد قال بعض الحكماء :الوعد مرض المعروف ، والانجاز برؤه ،والمطل تلفه . وقال بعض البلغاء : اذا احسنت القول فاحسن الفعل ، ليجتمع لك مزية اللسان وثمرة الاحسان . فانك لاتخلو فى خلفه من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه . وليكن فعلك أكثر من قولك ، فان زيادة القول على الفعل دناءة وشين، وزيادة الفعل على القول مكرمة وزين، ولاتجعل لغضبك سلطانا على نفسك، يخرجك من الاعتدال الى الاختلاف ؛ فان يسلم بالغضب رأي من زلل ،وكلام من خطل، لأن ثورته طيش معر ، ونفرته بطش مضر ، لأنه يخرج عن التأديب الى الانتقام، وعن التقويم الى الاصطلام . ولذلك قيل : أول الغضب جنون ، وآخره ندم .وقال ابن عباس : لم يمل الى الغضب إلا من اعياه سلطان الحجة . وقال بعض السلف

إياك وعزة الغضب ، فانها تفضى بك الى ذل الاعتذار . وقال بعض الحكماء : من كثر شططه كثر غلطه . وقال بعض الشعراء :

ولم أر للأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

وليكن غضبك تغاضبا ، تملك به عزمك ، وتقوم به خصمك . فتسلم من جور غضبك وتقف على اعتدال تغاضبك . فقد قيل فى بعض صحف بنى اسرائيل : اذا كان الرجل ذا غضب تواترت عليه الوضائع ؛ فكلما اشتد غضبه ازداد بلاء . وقال بعض الحكماء : الغضب يصدىء العقل . وكتب كسرى ابرويز الى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دما ، وإن أخرى منك تحقن دما ، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ؛ فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ؛ فان الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما . وقد يقترن بالغضب لجاج يساويه فى معرته ، ويشاركه في مضرته ؛ لأن اللجاج التزام الخطأ وإطراح الثواب . فدع عنك لجاج الألد الخصم ، وتجنب عواقب النذل الفدم ، وتابع الرأى فيما اقتضاه ، فلن يقبح بك العدول اليه بعد لجاجك ، ولأن تنتفع بالرأى أولى من أن تستعز باللجاج . وقد قال بعض الحكماء : من استعان بالرأى ملك ، ومن كابد الأمور هلك . وقال ابن المقفع : دع اللجاج فانه يكسر عزائم العقول . وقيل فى منثور الحكم : الظفر لمن احتج لا لمن لج . وقيل فيه : اللجوج يدخل فيما ليس منه خروج .

واعلم أن الجد والهزل ضدان متنافران ؛ لأن الجد من قواعد الحق الباعث على الصلاح . والهزل من مرح الباطل الداعى الى الفساد ؛ فصار فرق ما بين الجد والهزل ، هو فرق ما بين الحق والباطل : وتنافر الاضداد يمنع من الجمع بينهما . فاذا انفردت باحدهما كنت للآخر تاركا . وقد قيل الحق مفروض . والباطل مرفوض . وقال على كرم الله وجهه : العقل حسام قاطع والحلم غطاء سابغ ، فقاتل هواك بعقلك . واستر خلل خلقك بحلمك ، واستعمل

الجد ينقد اليك الحق، و يفارقك الباطل، ولا تعدل الى الهزل فيتبعك الباطل، و ينافرك الحق. ولقلما ائتلفت هيبة الجد و تكاملت هيبة الهازل. و الهيبة أس السلطنة. وحكى عمرو بن مرة أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: لن لنا، فقد ملأت قلوبنا هيبة، فقال أفي ذلك ظلم؟ قال: لا. قال: فزادني الله في صدوركم مهابة. وقال حكيم الهند: ليكن فيك مع طلاقتك تشدد، كيلا يجترأ عليك بالطلاقة، و ينفر منك بالتشدد؛ فاما الهزل فيكون من سخف أو بطر يخل عنهما من ساس الرعايا، ودبر الممالك. قال بزرجمهر: الهزل آفة الجد، والكذب عدو الصدق، والجور مفسدة الملك. وقال ملك الهند للاسكندر، وقد دخل بلاده: ما علامة دوام الملك؟ قال: الجد في كل الامور. قال: فما علامة زواله؟ قال: الهزل فيه. وقد قيل: من أبطرته النعمة وقره زوالها. وليس الكبر والعنف جدا، ولا التواضع و اللطف هزلا؛ وربما تداست هذه الاخلاق بغلبة الهوى و نازع الفطرة، فمزج صاحبها بالجد كبرا و عنفا، ليكون بهيبة الجد أحق، و من سخف الهزل ابعد؛ و هذا غير محسوس، لأن الكبر والتواضع من شيم النفوس كالسخاء والبخل والجد والهزل من أفعالها كالحق و الباطل؛ فتباعدا فى السبب واختلفا فى المسبب. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « اذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظا من نفسه». وقيل فى منثور الحكم: اذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل فيك.

وربما استكد الجد خاطر المجد، فاستروح ببعض الهزل ليستعين به على مصابرة الجد. فقد قيل فى منثور الحكم: الهم قيد الحواس. وحكى عن أبى الدرداء أنه قال: انى لأستجم نفسي بالشيء من الباطل، ليكون أقوى لها على الحق. وقيل فى منثور الحكم: ما أكثر من نهى فأغرى، فلا بأس أن يستسر منه فى زمان راحته، وأوقات خلوته، بمقدار دوائه من دائه، فان الكلال ملال، وليس للملول حزم ولا عزم. وليكن فيما

يتعلل به من الهزل محافظا على دينه و صيانة مروءته ، ويخرج هذا القدر عن حكم ماذم من الهزل ، لانه عون على ما يحمد من الجد . كما قال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشئ من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وكما تنافر الجد و الهزل ، كذلك تنافر الصدق و الكذب ، ضدان متنافران تختلف عللهما ، و تفترق نتائجهما . فالصدق من لوازم العقل ، وهو أس الدين ؛ و قوام الحق . والكذب من غرائز الجهل ، وهو زور يقترن بغرور ، ان التبست أوائله انهتكت أواخره ، وان جر التباسه نفعا ، عاد انتهاكه ضررا ، فلم يسلم من معرة زور ، ومضرة غرور . وقد روى عقبة ابن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أعظم الخطايا اللسان الكذوب» وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لان يضعنى الصدق ـ وقلما يفعل ـ أحب إلى من أن يرفعنى الكذب ـ وقلما يفعل ـ . ووجدت لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى سفر حكمته انه قال : الذى يلج بالكذب يرعى الرياح . و هذا من أوضح الامثال بياناً و عيانا .

فصل

(فى معنى الوزارة)

واذا مضت هذه الفصول فى مقدمات الوزارة فاسمها مشتق من معناها . واختلف فيه على ثلاثة أوجه ، أحدها : انه من الوزر وهو الثقل ، لأنه يحمل عن الملك أثقاله . و الثانى : انه مشتق من الأزر وهو الظهر ، لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره . و الثالث . أنه مشتق من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى: (كلا لا وزر) أى لا ملجأ . لأن الملك يلجأ إلى رأيه و معونته ، لان عليه مدار السياسة واليه تفوض الاموال . وقد قال بعض ملوك الفرس : الوزراء ساسة الاعمال ، و حازة الاموال .

و اذا كان كذلك فالوزارة ضربان : وزارة تفويض تجمع بين كفايتي السيف والقلم . ووزارة تنفيذ : تختص بالرأى والحزم . ولكل واحدة منهما حقوق وشروط .

فأما وزارة التفويض الجامعة بين كفايتي السيف والقلم ، فهي أعم نظرا ، وأنفذ أمراً . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « خلق الله الدنيا للسيف والقلم، وجعل السيف تحت القلم » . وهذه الوزارة هي الاستيلاء على التدبير، والعقد، والحل، والتقليد، والعزل ، فاما العقد، فيشتمل على شرطين : تنفيذ واقدام ، وأما الحل فيشتمل على شرطين : دفاع وحذر ، فصار الحل والعقد هنا أحد شرطي هذه الوزارة يشتملان على أربعة شروط : تنفيذ ، ودفاع ، واقدام ؛ وحذر . ولكل شرط منها فصل يشتمل على فصول .

فاما الفصل الاول، وهو التنفيذ. فهو أس الوزارة ، وقاعدة النيابة ، وهو الأخص بكفاية القلم في مصالح الملك واستقامة الأعمال، ويشتمل على أربعة أقسام:

أحدها تنفيذ ماصدرت به أوامر الملك، فعلى الوزير فيها حقان : أحدهما أن يتصفحها من زلل في ابتدائها ، ويحرسها من خلل في أثنائها ، ليرده عن زللها باللطف، ويقوى عزمه على صوابها بالاحماد . وقد قال افلاطون : أول رياضة الوزير أن يتأمل أخلاق الملك ومعاملته ، فان كانت شديدة فظة ، عامل الناس بدونها ، وان كانت لينة مطلقة عاملهم بأقوى منها ، ليقرب من العدل في سعيه ، والثاني تعجيل امضائها للوقت المقدر لها ، حتى لا يقف فيوحش ، لأن وقوف أوامره يوحش ، وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف . وقد قال حكيم الهند : العجلة في الأمر خرق ، وأخرق من ذلك التفريط في الأمر بعد القدرة عليه . وقال بعض حكماء العرب : كم من عزيز أذله خرقه ! ومن ذليل أعزه خلقه ، ودرك هذا التقليد عائد على الملك دون الوزير .

والقسم الثاني تنفيذ مااقتضاه رأي الوزير من تدبير المملكة فعليه في امضائه حقان: أحدهما أن يراعي أولى الأمور في اجتهاده وأصوبها في رأيه، لانه مندوب

لا صلحها ومأخوذ بأصوبها . والثانى أن يطالع الملك به ان جل ، ويجوز أن يطويه عنه ان قل، ليخرج عن الاستبداد المنفر، ويسلم من الحقد المؤثر . وقد قال حكيم الهند: الاحقاد مؤثرة ، حيث كانت ، وأخوفها ما كان في أنفس الملوك ، لانهم يدينون بالانتقام ، ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخرا ، فان عارضه الملك في رأيه بعد المطالعة به لم يستوحش من معارضته لانه ملك مستنيب ، وظان مستريب ، وقابل بين رأيه ومعارضته فيه ، واستوضح منه أسباب المعارضة بلطف ، ان خفيت . فقد قيل : الكلام اللين مصائد القلوب ، فان وضح صوابها ، توقف عن رأيه وشكره على استدراك زلله ، وتلافي خلله، وقد من عليه إذ صفح ولم يؤنب ، وان كان الصواب مع الوزير تلطف فى ايضاح صوابه ، وكشف علله وأسبابه، فان ساعده على امضائه أمضاه ، وكان دركـ تنفيذه عائدا على الوزير دون الملك ، وان لم يساعده عليه توقف عنه انقيادا لطاعته . فقد قال بعض السلف : من ضن بعرضه فليدع المراء . وقال : خل الطريق لمن لا يفيق ، ويكون درك وقوفه عائدا على الملك دون الوزير .

والقسم الثالث تنفيذ ما صدر عن خلفائه على الاعمال التى فوضها إلى آرائهم ، ووكلها إلى اجتهادهم ، فان تفردوا بتنفيذها أمضاها لهم ، ولم يتعقبها ما لم يتحقق زللهم فيها . وكان درك تنفيذها عائدا على العمال دون الوزير ، وان وقفوها على تنفيذ الوزير ، فعليه فى تنفيذها حقان : أحدهما أن يستكشف عن اسبابها ليعلم خطأها من صوابها: والثانى تقوية أيديهم ونفي الارتياب عنهم ، فانظهور الارتياب يخنيهم . وقد قال حكيم الفرس : ليس احد أبعد من الخير من اثنين منزلتهما واحدة ، وعللهما مختلفة ، أحدهما من لا يثق بأحد ، والثانى من لا يثق به أحد ، فان نفذها لهم حين لم يتحقق زللهم فيها ، كان درك تنفيذها عائداً على العمال دون الوزير ، وإن وقفها كان درك وقوفها عائدا على الوزير دون العمال .

والقسم الرابع تنفيذ أمور الرعايا على ما ألفوه من عادات ومعاملات، واختلفوا فيها حتى ائتلفوا بها ؛ لأن الناس مجبولون على الحاجة الى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها ، فخولف بين هممهم لينفرد كل قوم بنوع منها ؛ فيأتلفوا بها فيقوم الزراع بمزارعهم ؛ و يتشاغل الصناع بصنائعهم . ويتوفر التجار على متاجرهم . وقد قال حمير الملك لوزيره : الناس أربع طبقات طبقة للفروسية ألحقهم بالشرف ، وطبقة لاقامة الديانة ألحقهم بالكفاية ، وطبقة للزراعة والعمارة أجرهم على الانصاف ، وطبقة للمهن لا تخلهم من الاحسان. وعليه فى تنفيذها لهم حقان : أحدهما أن لا يعارض صنفا منهم فى مطلبه ؛ والثانى ان لا يشاركه فى مكسبه . وربما كان للسلطان رأي فى الاستئثار من أحد الاصناف فينقل اليه من لا يألفه فيختل النظام بهم فيما نقلوا عنه وفيما نقلوا اليه . لأن تميزهم بالهام الطباع اعدل فى ائتلافهم من التصنع لها ، وربما ضن السلطان عليهم بمكاسبهم فتعرض لها اوشاركهم فيها ، فاتجر مع التجار ، وزرع مع الزراع ، وهذا وهن فى حقوق السياسة ، وقدح فى شروط الرياسة من وجهين : أحدهما أنه اذا تعرض لأمر قصرت فيه يد من عداه ، فان تورك عليه لم ينهض به ، وان شورك فيه ضاق على أهله . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ماعدل وال اتجر فى رعيته » . والثانى ان الملوك أشرف الناس منصبا ، فخصوا بمواد السلطنة لأنها أشرف المواد مكسبا ، فان زاحموا العامة فى درك مكاسبهم أو هنوا الرعايا بسوء المالك ، وعاد وهنهم عليها فاختل نظامها ، واعتل مرامها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اذا اتجر الراعى اهملت الرعية» . وقال بعض الحكماء : اذا لم يكن فى سلطان الملك سرور الرعية ، كان ملكه ظلما . وكتب حكيم الروم الى الاسكندر : أى ملك تطلعت نفسه الى المحقرات فالموت اكرم له .

فصل

(الدفاع بهمة الوزير)

فاما الفصل الثانى وهو الدفاع . ويشتمل الدفاع على اربعة اقسام : أحدها الدفاع عن الملك من الأولياء ، والثانى الدفاع عن المملكة من الاعداء ، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء ، والرابع دفاعه عن الرعية من خوف واختلال .

فاما القسم الاول فى دفاعه عن الملك من أوليائه فيكون بثلاثة اسباب : أحدها أن يقودهم الى طاعته بالرغبة ؛ ويكفهم عن معصيته بالرهبة ؛ فان الرغبة والرهبة إذا تواليا على النفس ذلت لهما وانقادت خوفا وطمعا ، وبهما تعبد الله الخلق فى وعد الله ووعيده : والثانى أن يقوم بكفايتهم حتى لاينفروا بالقوة أو يتفرقوا بالضعف ، وكلاهما قدح فى الملك لأنهم بالقوة اعداء مسلطون ، وبالضعف عجزة مستبدلون . وثبات الملك يكون بان تكون القوة للسلطان ليصير قاهراً لهم ، ولاتكون القوة لهم فيصير مقهورا بهم . بلغ المأمون أن الجند بخراسان شغبوا ونهبوا فكتب الى عامله بها: لو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا : والثالث أن يحفظهم من الاغواء ، ويحرسهم من الاغراء ، وذلك بأمرين : احدهما بالبحث عن اخبارهم حتى يعلم سليمهم من سقيمهم : والثانى بابعاد المفسدين عنهم حتى لايتعدى اليهم فسادهم ، فان الكف بحسب الكشف، والمهل زائغ أو رائغ ولاخير فى واحد منهما لضلال الزائغ ومخاتلة الرائغ. وقد قيل فى منثور الحكم : من علامة بقاء الدولة قلة الغفلة .

والقسم الثانى فى دفاعه عن المملكة من اعدائها ؛ واعداء الممالك من انفرد بملك أو امتنع بقوة . وهم ثلاثة اصناف: أكفاء مماثلون، وعظماء متقدمون، وناجمة متنافسون . فاما الاكفاء المماثلون فيدفعون بالمقاربة والمسالمة . وأما العظماء المتقدمون فيدفعون بالملاطفة والملاينة . وأما الناجمة المنافسون فيدفعون

بالسطوة و المخاشنة .فان اختلاف الرتب يوجب تباين اهلها و تنافى احوالها.فان انقاد للأعلى انقاد له الأدنى، يدين بما دان. كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «كما تدين تدان». و أن ناكر نوكر وكان على وجل من سطوة العالى ومنافرة الدانى. و قد قال بعض الحكماء :من قلت تجربته خدع ،ومن قلت مبالاته صرع.و ان استغنى عن محاربة احدهم كف عنها وهول بها، و لم يخرق حجاب الهيبة ؛و لم يقطع اسباب المراقبة؛ ليحظى باربعة اشياء :دعة المسالمة، والأمن من خطر المناجزة ،و بقاء الاموال،وراحة الاجناد. وقد قالت القدماء :خذ بالاناة ما استقامت لك، و اقبل العافية ماوهبت لك، ولا تعجل الى مناجزة العدو ماوجدت الى الحيلة سبيلا ، و لا تسأمنّ من مطاولة عدوك، فان لك فى الابطاء انتظاراً لفرصة،وظفراً بعورة، وتوق طلب الظفر باللقاء ،فانه لا يكاد ينال الا بالاخطار .و لتكن الرغبة منك فى طاعة عدوك الك آثر عندك من الغنيمة، تصب به سلامة أصحابك ورعيتك. وقد قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه: خذ على عدوك بالفضل،فانه أحد الظفرين.و إن دعت الضرورة الى المناجزة بعد الاعذار والانذار ،أيقظ لها عزمه واستعمل فيها حزمه؛ و اقدم عليها بعد الاستخارة متبعاً للدين، و مستعملا للعدل. فلن يعدل عنهما الاباغ مصروع ، و قد قال بعض الحكماء: من سل سيف البغى اغمد فى رأسه ،و من أسس اساس السوء اسسه على نفسه . وليكن الحذر جنته،والاستظهار عدته، و قد قال حكيم الفرس : احذر التفريط فى الأمور اتكالا على القدر ،فان لكل قدر سببا يجرى اليه؛ فسبب النجح العمل، و سبب الخيبة التفريط . وكان يقال: تفكر قبل أن تعزم، و تبين قبل أن تهجم ،وشاور قبل أن تقدم. واذا وضعت الحرب اوزارها على ظهر وغلبة صفح و تألف . فقد كتب حكيم الروم الى الاسكندر :اذا ظهرت الغلبة على قوم فضع مع أوزار الحرب الغضب ، لأنهم فى الحال الأولى اعداء ، وهم فى هذه الحال حول . فابدلهم بالغضب رحمة ، و بالأذى احسانا .

والقسم الثالث فى دفاع الوزير عن نفسه من اكفائه ، فتكون بعد استصلاح الطرفين الاعلى وهو الملك، والادنى وهم الاعوان. واكفاؤه ثلاثة : واتر ، وموتور ، ومنافس .

فاما الواتر : فقد بدا بشرّه ، وجاهر بعداوته ؛ وكلاهما بغى منه يؤنس بالنصر عليه ، وقد قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : سهم الظالم يرجع عليه، لأن عقوبته تسرع اليه ، وقد قال بعض الحكماء : من فعل الخير فبنفسه بدأ ،ومن فعل الشر فعلى نفسه جنى. ولك فى بره حقان حق فى مقابلته على ما قدم من بره، وحق فى استدفاع ما جاهر به من عداوته، فاما حقك فى المقابلة فان عفوت عنها كنت بالفضل جديرا ؛ وإن قابلت عليها كنت فى المقابلة معذوراً . وقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال «من أراد أن يشرف الله له البنيان، وأن يرفع له الدرجات يوم القيامة ؛ فليعف عمن ظلمه ، ويصل من قطعه، وليعط من حرمه، وليحلم عمن جهل عليه» وقال المنتصر : لذة العفو أطيب من لذة التشفي، لأن لذة العفو يتبعها الحمد ، ولذة التشفي يعقبها الندم، قال الشاعر :

وليس اعتذاري من قبيح بنافع   اذا قيل لى يوما وصدق قائله

فانك تلقى فاعل الشر نادما   عليه ولم يندم على الخير فاعله

وأما حقك فى استدفاع عداوته ، فقد أيقظك بمجاهرته ، واوهن كيده بمظاهرته . وقد قيل فى منثور الحكم : اوهن الأعداء كيدا أظهرهم بعداوته ؛ فاحذر بادرته وادفع عداوته. ودفعها مختلف باختلاف طباعه فى اثباته الرغبة أو تقويمها بالرهبة. وقد قال لقمان لابنه: يابنى اعتزل الشر يعتزلك فان الشر للشر خلق. وقد قيل فى الصحف الأولى: الشرير شره عليه .وقال الحسن بن سهل ـ وحدث الفهلمان ـ: ثلاثة لا يصلح فسادهن بشئ من الحيل: العداوة بين الاقارب، وتحاسد الاكفاء، والركاكة فى الملوك. وثلاثة لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر : العبادة فى العلماء، والقنوع فى المستبصرين، والسخاء فى ذوى الاقدار. وثلاثة لا يشبع منهن: الحياة والمال والعافية .

وأما الموتور : فقد بودئ بالاساءة فصبر . وجوهر بالعداوة فأخفاها . فله ترة مظلوم ووثبة مختلس ، فتتوقى ترة ظلامته بالاستعطاف ، وتتوقى وثبة مخالسته بالاحتراز. وقد روى مجالد عن الشعبي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والمشارّة فانها تدفن الغره وتظهر العره ». وقد قيل فى امثال الحكم: ثلاثة القليل منها كثير، النار والعداوة والمرض. قال الشاعر:

فلا تأمنن الدهر حراً ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم

وأما المنافس فهو طالب رتبة إن نال منها سداداً من عوز ياسر، وان ضويق فيها نافر، فارخ له عنان الأمل، واخفض جناح منافسته بالاستنابة والعمل. لتدفعه بالمياسرة عن المنافرة، وغالط به الايام فان الساعات تهدم الاعمار . وقد قيل فى منثور الحكم: المرء بساعاته؛ والدهر فى مساعاته. ولا تجعل له فراغا يتشاغل فيه بمساءتك، ويجعلك عذراً فى السعى على منزلتك، فان المضطر جسور. فان ساق القضاء اليه حظا كنت له مصطنعا يرعى لك حقوق الاصطناع . فقد قيل: من علامة الاقبال اصطناع الرجال. وقال بعض الحكماء: اصطنع الخير عند امكانه؛ يبق لك حمده بعد زوال ايامه؛ واحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك، واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك. وان صده القضاء عن ارادته وحجزه القدر عن طلبته، كفيت ماخفته وقد أحسنت. ووصلت الى ما اردته، وقد أجممت. فقد قيل فى منثور الحكم: الحوائج تطلب بالعناء ،وتدرك بالقضاء، ثم قد أوجبت باحسانك شكراً ؛واقمت باجمامك عذراً : اجتذبت بهما قياد منافسك الى طاعتك، وصرفته بهما عن التعرض لمنافستك ، فسيجعلك قبلة رجائه إذ لم يحظ بخير الا منك، ولم يقض من زمانه وطرا الا بك. وقد قيل فى منثور الحكم: من استصلح الاضداد بلغ المراد. وقد قيل فى منثور الحكم: قيل لبعض الحكماء ما النبل؟ قال مؤاخاة الاكفاء، ومداهنة الأعداء . وربما تعرض لعداوتك من قصر عن رتبة منافستك؛ فاعطه من رجائه طرفا، واقبض من زمامه طرفا، واختبرها فيه فستقف به الغاية على صلاح أوفساد، فان صلح سوعد ، وان فسد توعد وقد

قال ازدشير بن بابك: احذروا صولة الكريم اذا جاع، واللئيم اذا شبع. وقد قيل في منثور الحكم: علة المعاداة قلة المبالاة. وقال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لابنه: لا تستكثر أن يكون لك الف صديق فالالف قليل، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير. والسلامة من الزمان واهله من كذب الاماني، فاقلل ولا تستكثر: فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو لم يصب ابن آدم من الدنيا الا الأمن والسلامة لكفى بهما داء قاتلا». وقيل في منثور الحكم: الناس عون على الصبر. وقال ابراهيم بن المهدي:

و للنفوس وان كانت على وجل … من المنـــية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها … والنفس تنشرها والموت يطويها

والقسم الرابع: في الدفاع عن الرعية من خوف واختلال من نتائج الاهمال، وكلاهما من سوء السيرة وفساد السياسة لترددهما بين تفريط وافراط، وخروجهما عن العدل إلى تقصير أو اسراف؛ وهم قوام الملك المستمد وذخيرة المستعد ان أهملوا فسدوا وأفسدوا، وان حيف عليهم هلكوا وأهلكوا، فلن يستقيم ملك فسدت فيه أحوال الرعايا، لأنه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا ينهض إلا بقوته ولا يستقل إلا بمعونته، وعليك لهم ثلاثة حقوق: أحدها أن تعينهم على صلاح معايشهم، ووفور مكاسبهم، لتتوفر بهم موادك وتعمر بهم بلادك. وقد روى عطاء عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس». وقال وهب بن منبه: ان أحسن الناس عيشا من حسن عيش الناس في عيشه: والثاني أن تقتصر منهم على حقوقك وتحملهم فيها على انصافك، ليكونوا على الاستكثار أحرص وفي الطاعة أخلص. وقد قيل: من خاف اساءتك اعتقد مساءتك. ولا تكلهم في مقادير الحقوق إلى غيرك فيكونوا له أرجأ وعليه أحنا. فقد قيل في سالف الحكم: انما يستخرج ما عند الرعية ولاتها، وما عند الجند قادتها، وما في الدين والتأويل علماؤه: والثالث أن

تحوطهم بكف الاذى ومنع الايدي الغالبة منهم، لتكون لهم كالأب الرءوف ويكونوا لك كالاولاد البررة؛ فانك كافل مسترعى ومسئول مؤاخذ . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . فلله عليك فيهم حق ، وللسلطان عليك فيهم تبعة ، فاغتنم بهم شكر احسانك . وجمل بهم آثار سلطانك، فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام ، وقد قيل: من الدنيا على الدنيا دليل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ». وقيل فى منثور الحكم: عود الحياة فى كل يوم يعتصر ، وقال بعض الحكماء : كل يوم يسوق إلى غده ، وكل امرىء مأخوذ بجناية لسانه ويده . فاغتنم غفلة الزمان، وانتهز فرصة الامكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك . وكتب حكيم الروم إلى الاسكندر :لا تكلب على الدنيا فانك قليل البقاء فيها . ومن أحكم ما قيل فى هذا المعنى قول الشاعر :

همومك بالعيش مقرونة   فما تقطع العيش إلا بهم

وحلوة دنياك مسمومة   فما تأكل الشهد إلا بسم

إذا تم أمر بدا نقصه   توقع زوالا إذا قيل تم

ولما تاب الله تعالى على سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورد عليه ملكه كتب على كرسيه : اذا صحت العافية نزل البلاء ، واذ اتمت السلامة نجم العطب، واذا تم الأمن علا الخوف

فصل

(الاقدام)

(من مزايا الوزير وصفاته)

فاما الفصل الثالث وهو الاقدام. فهو فى السياسة أو فى شرطيها، وفى الوزارة اكفى نظريها، بظفر الاقدام وخيبة الاحجام. وقد قيل فى منثور الحكم: بالاقدام ترتفع الأقدام ؛ وانما يجب الاقدام اذا ظهرت أسبابه من فرصة تنتهزها أو

قوة تجدها . وقصدت أبوابه فى إبانه وعند امكانه . كما قال الشاعر:

اذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت و إن تقصد الى الباب تهتدي

ثم تجمع بينهما بين حزمك و عزمك . فالحزم تدبير الأمور بموجب الرأى ؛ و العزم تنفيذها للوقت المقدر لها : فاذا تكاملت شروط الاقدام من هذه الوجوه الاربعة . لم يمنع من الظفر الاعوائق القدر . وقد قيل فى قديم الحكم : اذا طلب اثنان حظا ظفر به أفضلهما دينا . فان استويا فى الدين ظفر به أفضلهما مروءة . فان استويا فى المروءة ظفر به أكثرهما أعوانا . فان استويا فى الاعوان ظفر به أسعدهما جدا . فان انثلم من شروط الاقدام أحدها صار الاقدام تغريراً يمنع من حزم ذى اللب . ويصد عن الظفر ما لم يغلب قدر . فما الاقدار بقياس معتبر . وقد قال حكيم الهند : السبب الذي يدرك به العاجز حاجته ، هو الذى يحول بين الحازم وطلبته . وقيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء ؟ قال : نجح الجاهل و إكداء العاقل . ودخل رجل على عبدالله بن طاهر فقال له : أيها الامير ما الذي لا يحتاج فيه إلى عزم و لا حزم ؟ فاستمهله فى جوابه ثلاثة أيام. فعاد اليه بعدها و سأله. فقال له : الدولة. فقال: صدقت و ما أخرج هذه الكلمة منك إلا الدولة . و لذلك قيل فى منثور الحكم الحظ يأتى من لا يأتيه .

و الاقدام ينقسم قسمين : احدهما الاقدام على اجتلاب المنافع . والثانى الاقدام على دفع المضار .

فاما الاقدام على اجتلاب المنافع، فضربان احدهما. استضافة ملك . و الثانى استزادة مواد . فاما استضافة الملك . فيكون بالحزم و العزم . إذا اقترنا برغبة و رهبة . و لأن تكون بالاغتيال والاحتيال . أولى من أن تكون بالقتال. و لذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم : «الحرب خدعة» . وقيل فى أمثال الحكم : أربعة لا يركبها إلا أهوج . و لا يسلم منها إلا القليل . مناجزة الحرب .

وركوب البحر ، وشرب السم للتجربة ، وائتمان النساء على السر . وأما استزادة المواد فيكون بالعدل والاحسان ، إذا اقترنا برفق ومياسرة ، لتكثر بهما العمارة ، وتتوفر بهما الزراعة ، فان الارض كنوز الملك ، يستخرجها أعوان متطوعون ، يقنعهم الكف عنهم ، ويقطعهم العسف بهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزق في خبايا الارض ». يعنى الزرع ولأن تستمد فرعا داراً يعم خيره : أولى من أن تجتث أصلا منقطعاً يعم ضرره ، فلا نفاد لدار ، ولا لبث لمنقطع ، ومايفسده إلا المبادرة قبل أوانه ، والعجلة قبل زمانه ، وقد قيل فى أمثال الحكم : الحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، فانك تنالها فى أوانها عذبة ، والمدبر لك أعلم بالوقت الذى تصلح فيه ، فثق بخبرته لك ، ولا تحمل حوائج عمرك كله على يومك ، الذي أنت فيه ؛ فيضيق عليك ويشغلك القنوط عن تدبيرك ، فليحذر العجلة ، فيراه الناس مسيئاً ؛ وقد قيل لبعض الحكماء : من شر الناس ؟ فقال : من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا .

وأما الاقدام على دفع المضار ، فضربان : دفع مااختل من الملك وله سببان : نفور وجور ، فادفع ضرر كل واحد منهما بالضد من سببه ، فان علاج كل داء بضده من الدواء ، فان كان اختلال الملك من الاهمال ايقظت له عزمك وان كان ذلك من العجز ، استعملت فيه حزمك ، وان كان نقص المواد من النفور ، استحدثت فيه رهبتك ، وان كان من الجور ، أظهرت فيه معدلتك ، فان كان حدوث ذلك فى الملك صادراً عنك ، كنت مؤاخذاً بتفريطك في الابتداء ، ومستدركا لتقصيرك فى الانتهاء ، فجبرت اساءتك باحسانك ، ومحوت قبيحك بجميلك ، وان كان حدوثه من غيرك ، كانت جريرة الاساءة عليه ، وكان حمد الاحسان لك ، وبان بك سوء أثره ، وبان به جميل أثرك . وقد روى عطاء بن السايب عن أبيه عن ابن عمر عن النبى

صلى الله عليه وسلم إنه قال: «الخير كثير، وقليل فاعله». فقال بعض الحكماء:
خير من الخير فاعله، وشر من الشر فاعله

فصل

(فى الحذر)

وأما الفصل الرابع: وهو الحذر فان الدهر ثائر بطوارقه. ومنافر بنوائبه، يغدر ان وفى، ويقتل ان هفا. ولذلك قيل فى منثور الحكم: الدنيا مرتجعة الهبة، والدهر حسود لا يأتى على شئ إلا غيره. وقال عبدالحميد: أصاب الدنيا من حذرها، وأصابت الدنيا من أمنها. وقال عبدالملك بن مروان: احذروا الجديدين، فللاقدار أوقات تغضى عنها الابصار. فاذا صادفت طوارقه غراً مسترسلا، صار هدفاً لسهامها الصوائب، وغرضاً لمنافرة الحوادث والنوائب. وقد قال بعض الحكماء: من أعرض عن الحذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس، زال عنه العز، واستولى عليه العجز وان قدم لطوارقه حذر المتيقظ، وتلقاها بعدة المتحفظ، رد بادرتها بعزم ذى حزم؛ قد حلب أشطر دهره، وقام بواضح عذره. وقد قال بعض الشعراء:

ان للدهر صولة فاحذرنها   لا تبيتن قد أمنت الدهورا

ثم هو بعد حذره مستسلم لقضاء لا يرد، وقدر لا يصد. وقد روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت». وقيل لبعض الحكماء: من السعيد؟ قال: من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه. وقال بعض الشعراء:

وحذرت من أمر فمر بجانبي   لم يبكنى ولقيت ما لم أحذر

وللحذر حد يقف عنده، ان زاد عليه صار خوراً. كما ان للاقدام حداً، ان زاد عليه صار تهوراً. والزيادة على الحدود نقص فى المحدود،

ولهما زمان ان خرجا عنه صار الحذر فشلا : والاقدام حرقا . وعارهما معتبر بحزم العاقل . ويقظة الفطن . وقد قيل في منثور الحكم : أيدي العقول تمسك أعنة الأنفس . وقال بعض الحكماء : ليعرفك السلطان عند افتتاح التدبير بالحذر ، وعند وقوع الأمر بالجد . والحذر يلزم من أربعة أوجه : أحدها الحذر من الله تعالى فيما فرض ، والثانى الحذر من السلطان فيما فوض ، والثالث الحذر من الزمان فيما اعترض . والرابع الحذر من غلبة الأعداء ومكر الدهاة .

فاما الحذر من الله تعالى ، فهو عماد الدين الباعث على الطاعة . والحذر منه : هو الوقوف على أوامره ، والانتهاء عن زواجره ، فيعمل بطاعته فيما أمر ، وينتهى عن معصيته فيما حظر ، فلن ترى قليل الحذر إلا متجوزاً فى دينه ، طامحاً فى غلوائه ، لا يرى رشداً فى العاجل ، وهو على وعيد فى الآجل ، مع نفور النفس منه ، وسراية الذم فيه . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى : العزة والقوة يعظمان القلب ، وأفضل منهما خوف الله تعالى ، لأن من لم تردعه خشية الله ، لم يخف الوضيعة ، ولم يحتج إلى ناصر . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا ، وأقرب لمجيء ما اتقى . وقال بعض الحكماء : خير الاخلاق أعونها على الورع . وقال بعض السلف : انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك . وقال البحتري :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه مفكرا أى باب فيه يطرقه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفرقه

وأما الحذر من السلطان ، فهو وثاب بقدرته ، متحكم بسطوته ، يميل به الهوى فيقطع بالظن ، ويؤاخذ بالارتياب ، فالثقة به عجز ، والاسترسال معه خطر . وقد قيل : ثلاثة لا أمان لهم : السلطان والبحر والزمان . وقيل : إذا تغير السلطان تغير الزمان ، والحذر منه فى حالتى السخط والرضا أسلم لأنه

يستذنب إذا مل . حتى يصير المحسن عنده كالمسيء . فاستخلص رأيه بالنصح واستدفع تنكره بالحذر . وقد قال بعض الحكماء : اصحب السلطان بثلاث الحذر ورفض الدولة ، والاجتهاد فى النصح . وحذرك منه يكون بثلاثة أمور :

أحدها : أن لا تعول على الثقة فى ادلال واسترسال ، فما جرت الثقة إلا ندما كما قال الشاعر :

ما زلت اسمع كم من واثق خجل   حتى ابتليت فصرت الواثق الخجلا

وقد قيل : الخرق الدلالة على السلطان ، والوثبة قبل الامكان . فاقبض نفسك إذا قدمك ، وتواضع له اذا عظمك ، واحتشمه إذا آنسك ، ولن له إذا خاشنك ، واصبر على تجنيه إذا غالظك . فهو على التجنى أقدر ، فكن على احتماله أصبر . فربما كانت مجاملته لك مكراً ، وتجنيه عليك عذرا ، فقد قيل فى بعض الصحف الاولى : حب الملك وهواه يشبه الطل الذي ينزل على العشب . وقد قالت حكماء الهند : مثل السلطان فى قلة وفائه للاصحاب ، وسخاء نفسه عنهم مثل البغى ، والمكتب ، كلما ذهب واحد جاء آخر . والعرب تقول : السلطان ذو عدوان وبدوان . فلا تجعل له فى اظهار تنكره عليك عذرا . فربما اعترف بالحق فوفى ، ورق بالصبر فكف ، ولذلك قيل فى أمثال كليلة ودمنة : صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس ؛ وهو لمركوبه أشد خوفا . وقد روى مصعب بن منصور عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : «السعيد من وعظ بغيره». وقال شاعره حسان بن ثابت .

ولا تأمن الدهر الفتون فاننى   برأى الذي لا يأمن الدهر مقتدي

والثانى : فى حذرك منه : أن تساعده على مطالبه ، وتوافقه على محابه ومشاربه : ولا تصده عن غرض . إذا لم يقدح فى دين ولا عرض ، ولا تتوقف عن اجابته ، وان شغلك ماهو أهم . فما يقيم لك عذرا اذا وجدك

فى أغراضه مقصرا . وان كنت على مصالح ملكه متوفرا : فانه اتخذك لنفسه ثم لملكه : وقد يقدم حظ نفسه على مصلحة ملكه : لغلبة الهوى : ونازع الشهوة . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يعمى ويصم » أي يعمى عن الرشد ، ويصم عن الموعظة . فكن متوفرا على مراده: ليسلم اعتقاده لك ، فان قدحت أغراضه فى دين أو عرض . سللت نفسك من وزرها ، وتحفظت من شينها ، بالتلطف فى عفة عنها بما يعتاضه بدلا منها . ليسهل عليه اقلاعه عنها : فان ساعدك عليه ، سلم دينكما : وزال شينكما . وقد روى أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لله خزائن للخير والشر مفاتيحها الرجال ؛ فطوبى لمن جعله مفتاحاً للخير مغلاقا للشر . وويل لمن جعله مفتاحاً للشر مغلاقا للخير». وقال بعض الشعراء :

ستلقى الذي تدمت للخير محضرا وأنت بما تأتى من الخير أسعد

وان أصر عليها لنت فى متاركته ، وأحجمت عن مساعدته ، وهو خداع يتدلس بالمغالطة ، ويخفى بالحزم ، فاستنجد فيه عقلك ، واستعمل فيه حزمك : لتسلم من تنكره ؛ وتخلص من وزره . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « ان من شرار الناس عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره » .

والثالث : فى حذرك منه أن تذب عن نفسه وملكه بما استطعت من مال ونفس ، فانك عن نفسك تذب ولها ترب ، لأنه لا يصلح حالك : مع فساد حاله ، وأنت فرع من أصله : وهو يسترسل لثقته بك . ويستسلم لتعويله عليك ، فقابل ثقته بأمانتك ، واستسلامه بكفايتك . ولا تلجئه أن يباشر دفع الخوف والحذر ، فيلجئك إلى ما هو أخوف وأحذر ؛ لأنك تخافه وتخاف ما يخافه ؛ فيتوالى عليك خوفان ويتهالأ عليك خطران . وقال الشاعر :

ان البلاء يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق

فادفع خوفك منه بدفاعك عنه . تكن من الخوفين آمنا : ومن الخطرين سالماً . وقد قال عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما :

كأنك لم تنصب ولم تلق شدة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

واعلم ان لسلطانك عليك حقوقا لك عليه مثلها : فحقوقه عليك ثلاثة : أحدها قيامك بمصالح ملكه . وهى أربع : عمارة بلاده ؛ وتقويم أجناده ؛ وتثمير مواده : وحياطة رعيته . والثانى من حقوقه عليك قيامك بمصالح نفسه . وهى أربع : ادراك كفايته ؛ وتحمل عوارضه ؛ وتهذيب حاشيته : واستعداد ما يدفع به النوائب . والثالث من حقوقه عليك . قيامك بمقاومة أعدائه ، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثغور ، واستكمال العدة ، وترتيب العساكر ، وتقدير الحدود . فأد حقوق سلطانه ، ووف شروط ائتمانه ، واحذر بادرة مؤاخذته ان قصرت ، وسطوة انتقامه ان فرطت ، فقد قيل فى منثور الحكم : من فعل ما شاء ، لقي ما لم يشأ . وقال بعض البلغاء : من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . واعلم ان بادرة الانتقام ، أسرع من ظهور الانعام . لان الانتقام يصدر عن طيش الغضب : والانعام يصدر عن إناة الكرم ، فربما هجم الانتقام قبل الحذر ان تم على مداومة الحذر . ولذلك قال أبو زبيد الطائى:

والخير لا يأتيك مجتمعاً والشر يسبق سيله مطره

وقد قيل فى حكم الفرس : ماأضعف طمع صاحب السلطان فى السلامة. وذلك انه ان عف جنى عليه العفاف عداوة الخاصة ، وان بسط يده جنى عليه البسط ألسنة المتنصحين . فلزمك بذلك أن يكون حذرك أغلب من رجائك ، وخوفك أكثر من أمنك ، ولئن تكدر بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى . وقد قال بعض الحكماء : بالصبر على ما تكره تنال ما تحب ؛ وبالصبر على ما تحب تنجو مما تكره .

فاما مايقابلها من حقوقك على سلطانه فثلاثة . أحدها : معونتك على نظرك ؛ وذلك بأربعة أشياء : تقوية يدك ؛ وتنفيذ أمرك ، واطلاق كفايتك، وان لا يجعل لغيرك عليك أمراً . وقد قال سابور بن از دشير فى عهده الى ابنه هرمز : ينبغى للوزير أن يكون قوي الأمر ؛ مقبول القول ؛ يمنعه مكانه منك من الضراعة لغيرك ، وتبعثه الثقة بك على بذل النصيحة لك ، ويشجعه مايعرف من رأيك على مقاومة أعدائك ، وأحذرك أن تنزل بهذه المنزلة من سواه من خدمك . والثانى من حقوقك عليه : أن تثق منه بأربعة أشياء . أن لا يؤاخذك بغير ذنب ؛ ولا يطمع فى مالك من غير خيانة ؛ وأن لا يقدم عليك من دونك ، ولا يمكن منك عدواً . عهد ملك إلى ابنه فقال : انك لن تصل إلى إحكام ماتريده من تدبير ملكك إلا بمعونة وزرائك وأعوانك ؛ فأعنهم على طاعتك بمباشرتك ؛ وعلى معونتك بمساعدتك . والثالث من حقوقك عليه : أن يحفظك فى منزلتك فى أربعة أشياء : أن لايرتاب بباطنك وظاهرك سليم؛ فيؤاخذك بالظن ويعجز عن دفعه باليقين ، فليس يؤاخذ بضمائر القلوب إلا علام الغيوب . قيل لكسرى بن قباذ : إن قوماً من خواصك قد فسدت سرائرهم . فوقع: أنا أملك الاجساد دون النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى ، وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر . والثانى أن لا يستبدل بك ونظرك مستقيم ، فتقل ثقتك ويضعف نشاطك ، ولا تجد من نفسك نهوضا بما كلفك ؛ فان دواعى الطبع أبلغ من مصنوع التكلف ؛ وقد اتخذك لاستقامة وجدها بك ، فاذا أضاع حقك بالاستبدال ظلم نفسه وكان من غيرك على خطر . وقد قال كسرى : الوزارة أبعد الأمور من أن تحتمل غير أهلها ، لأن الوزير من الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، لأنه مغلق الابواب مستور عن الأبصار . ليحفظه فى أمواله . ويستر خلله فى أفعاله ، وحقيق بمن كان بهذه المنزلة أن يكون محفوظاً ومحوظا . والثالث

أن لا يؤاخذك بدركما جره القضاء و ساقه القدر :فيجعلك غرضاً فى معارضة خالقه . و هل أنت فيه إلا كمثله فكيف تكون أفعال الله ذنوبا لعاده . وقد قال بعض الحكماء : الأمور تطلب بالعناء وتدرك بالقضاء . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « إذا أراد الله تعالى انفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره » . و الرابع : ان لا يحملك ما ليس فى قدرتك ؛ ولا يكلفك ما ليس فى طاقتك ؛ فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وما ذلك إلا من دواعى التجنى ومبادى التنكر . قال حكيم الروم : أول ما يبتديء تغير الملك فى العين . فاذا ازداد خرج إلى اللسان ، فاذا ازداد خرج إلى اليد . فقد وضح بهذه الجملة مقابلة حقوقك عليه بحقوقه عليك . وقد قال المعتصم : من طلب الحق بما عليه أدركه ، غير أن حقوقك عليه موضوعة على المؤاخذة بأقلها ، لاستطالته عليك بالقدرة وقصورك عنه بالنيابة ؛ فكن على ما اقتضاه مناب الوزارة ، واعطه ما استحقه بسلطان الملك ، فينجح سعيك له إكداء سعيه عليك . وقد وصف موبذان موبذ في كتاب الملوك فقال : هم ، أعينهم المصونة عندهم ؛وآذانهم الواعية ؛ وألسنتهم الشاهدة ،لأنه ليس أحد أسعد من وزراء الملوك إذا سعدت الملوك ، ولاأقرب إلى الهلكة من وزراء الملوك إذا هلكت الملوك . فترفع التهمة عن الوزراء اذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لأنفسهم : ويعطهم اليقين بهم حين صار اجتهادهم للملوك اجتهادهم لانفسهم ، فلا تتهم روح على جسد ولا يتهم جسد على روح ، لأن زوال إلفهما زوال نعمتهما، والتئام إلفهما صلاح صاحبهما.

وأما حذرك من الزمان : فانه يتقلب بألوانه ، ويخشن بعد ليانه ،فيسلب ما أعطى ، ويفرق ما جمع . وقد روى أبو حازم عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انظروا دور من تسكنون ، وأرض من تزرعون ، وفى طرق من تمشون » . وقال بعض الحكماء : الدنيا

ان بقيت لك لم تبق لها . وقيل في منثور الحكم : من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال بعض البلغاء : ان الدنيا تقبل اقبال الطالب ؛ وتدبر ادبار الهارب : لا تبقى على حالة ولا تخلو من استحالة ؛ تصلح جانبا بافساد جانب ؛ وتسر صاحبا بمساءة صاحب ؛ فالكون فيها خطر، والثقة بها غرر. وقد قال قيس بن الخطيم :

ومن عادة الايام أن صروفها   إذا سر منها جانب ساء جانب

وحذرك من زمانك يكون من أربعة أوجه :

أحدها : أن لا تثق بمساعدته، ولا تركن إلى مياسرته، فتغفل عن الحذر والاستعداد . فربما انعكس فافترس ، وخافض فاختلس. وقد قيل : للدهر صروف ، لست عنها بمصروف . قال أبو العتاهية :

ان الزمان وان ألا   ن لأهله لمخاشن

لخطوبه المتحركا   ت كأنهنّ سواكن

والوجه الثانى : أن تنتهز فرصة مكنتك، بفعل الجميل وغرس الصنائع ، واسداء العوارف . ليكونوا لك ذخراً فى النوائب ، وخلفاً فى العواقب ، ولايلهيك استكفاؤك عن الاستظهار ، ولايمنعك استغناؤك عن الاستكثار. فقد قيل : المرء ابن يومه ، فليتنبه من نومه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « اغتنم خمساً قبل خمس . شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل عدمك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ».

وقال سعيد بن سلم :

إنما الدنيا هباة   وعوار مسترده

شدة بعد رخاء   ورخاء بعد شده

والوجه الثالث : أن تكف نفسك عن القبيح ؛ وتقبض يدك عن الاساءة ؛ لتكفى رصد الترات ، وغوائل الهفوات ، فتأمن من وجلك : وتسلم

من زللك. ولا تتطاول بالقدرة، فتغفل وأنت مطلوب. وتأمن وأنت مسلوب. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «اتبع السيئة الحسنة تمحها». وقيل فى بعض الصحف الاولى: ويل للآثمة لأن الشقاء لازم لهم إلى يوم وفاتهم، والأب الأثيم يلعنه بنوه إذا كانوا صالحين، لأنهم يعيرون به. وقال بعض الحكماء: باعتزالك الشر يعتزلك. وبالنصفة يكثر الواصلون. وقال مضرس بن ربعى: وهو من الأمثال السائرة:

الخير أبقى وان طال الزمان به   والشر أخبث ماأوعيت من زاد

والوجه الرابع: ان تستعد لآخرتك، وتستظهر لمعادك، ولاتغتر بالأمل فيجئك الفوت، ولاتلهك الدنيا فتصدك عن الآخرة، فقل من لابسها فسلم من تبعاتها لهفوات غرورها، وعواقب شرورها. روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور». وقيل فى منثور الحكم: طلاق الدنيا مهر الجنة، فكفر معاصيها بالتوبة، واجبر مساويها بالطاعة، ولاتضيع حظك فيها، ولاتنس نصيبك منها، واحسن كما احسن الله اليك. روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «الناس غاديان، فغاد نفسه فمعتقها، وموثق نفسه فموبقها». روى ابو موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «على كل مسلم صدقة. قالوا: فان لم يجد. قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فان لم يفعل. قال: يأمر بالمعروف وينه عن المنكر. قالوا: فان لم يفعل. قال. يمسك عن الشر فانها صدقة»

واما الحذر من أهل الزمان: فلأن الأنسان محسود بالنعمة، مغبوط بالسلامة. والناس على اربعة اطوار متباينة

احدها: خير عاقل يسالم بخيره ويساعد بعقله. فالظفر به سعادة والاستعانة به توفيق: فاجتهد ان لايفوتك – وإن كان قليل الوجود –

لتحظى بخيره و تسعد بعقله . و قد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم انه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . و قال بعض الحكماء : من خير الاختيار صحبة الاخيار ، ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . و قل ان يكون العاقل الخير إلا متحليا بالعلم متزينا بالأدب . وقد قال بعض الحكماء : لاأدب الا بعقل ، و لا عقل إلا بأدب ، و مثلهما كمثل الروح و الجسد فالجسد بغير روح صورة ، و الروح بغير جسد ريح . فاذا اجتمعا قويا فنهضا وانهضا ، فاذا أظفرك الزمان بمن تكاملت فضائله . و تهذبت خصائله ، فاتخذه ذخيرة نوائبك ، وعدة شدائدك ، تجده كفيل صلاحها وزعيم نجاحها . قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : من نجالس ؟ قال: من يزيد فى علمكم منطقه ، و يذكركم الله رؤيته ، و يرغبكم في الآخرة عمله.

والطور الثانى . شرير جاهل يضر بشره و يضل بجهله ، فاحذر مخالطته فهى اعم من السم ، و انفذ من السهم . فشره بجهله منتشر يضعف ان تورك ، و يقوى ان شورك : فاكفف شره بالابعاد ، ولاتقره بالتقريب ، فيلحقك بضرري شره و جهله . و قد قيل فى منثور الحكم : من الجهل صحبة ذوى الجهل . و قيل فى بعض اسفار بنى اسرائيل : ابعد عن الجاهل لتجد الراحة ، فان حمل الرمل والملح والحديد اسهل من المثوى مع الرجل الجاهل ؛ وضرر الجهل اعم من ضرر الشر ؛ لأن قانون الشر معلوم ؛ وقانون الجهل غير معلوم . و قد قيل : الجاهل مفرط أو مفرط

والطور الثالث : خير جاهل يسالم بخيره و يضل بجهله ، فقارنه ان شئت لخيره ولاتستعمله لجهله . لتكون بخيره موسوما ، ومن جهله سليما . فقد قال عبد الحميد : لكل شيء لباب و لباب النفوس الألباب

والطور الرابع : شرير عاقل و هو الداهية المكر ، يستعمل فى الخطوب اذا حزبت على حذر من مكره ، و يتارك فى الدعة على استدفاع شره . و قد

روى عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «ان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر». ومثل هذا يستكفى بمؤنة تمده؛ ومراعاة ترضيه، فانه كالسبع الضاري ان اجعته هاج؛ وإن أشبعته لان، ليكون مذخورا للحاجة. فان للزمان خطوبا لاتدفع الا بشرار اهله. كما قال حذيفة بن اليمان لرجل: أيسرك ان تغلب شر الناس؟ قال: نعم! قال: انك لن تغلبه حتى تكون شرا منه. فتعده لخطوب الشر اذا طرقت فانه بها اخبر؛ وعلى دفعها أقدر؛ ولأهلها اقهر؛ فان الحديد بالحديد يفلح. ويستكف الى جنبها بما يدفع بادية شره؛ ويقطع غائلة مكره؛ وان كانت ضراوة الشر أجذب، فطباع النفوس اغلب. وقد قال بعض الحكماء: مخالطة الاشرار خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم بدنه من التلف فيه، لم يسلم بقلبه من الحذر منه. فان وجدت من هذا الداهية فتورا فى همته، وقصورا فى منته؛ كانت سراية مكره انزر؛ وتأثيره فى الخطوب ايسر. وان كان عالى الهمة قوي المنة يتطاول الى معالى الامور، كانت سراية مكره أوفر، وتأثيره فى الخطوب اكثر. فاعطه فى كل حال من أمريه من الحذر والسكون؛ بحسب ماتقتضيه همته وتبعث عليه منته. ليكون قانونك مستقيما؛ ومن دهاء مكره سليما؛ لا ينالك خور من سرف، ولا استرسال من تقصير، قد جعل الله لكل شئ قدرا. فهذا تفصيل ما اشتمل عليه العقد والحل والله أعلم

فصل

(التقليد والعزل)

واما تفصيل مااشتمل عليه التقليد والعزل: وهو الشطر الثانى. فالتقليد على ضربين: تقليد تقرير: وتقليد تدبير. فاما تقليد التقرير فهو فيما يستأنف

انشاء قواعده . و يبتدئ تقرير رسومه . و هو على ثلاثة اقسام

احدها : أن يكون فى خاص يقدر الوزير على مباشرته ، فالوزير اخص بتقريره واحق بتنفيذه . لأنهـا اصول مؤبدة من خواص نظره . فان قلد عليها واستناب فيها كان تقصيرا منه فيما جل ، ومعذورا فيه ان قل . ولم يكن لمن قلده تنفيذ تقريره الا عن اذنه ، وإلا كان عزلا خفيا . لأنه يصير ملتزما وقد كان ملزما ، ومحكما وقد كان حاكما

والقسم الثانى : ان يكون التقليد فيما بعد عنه ويمكن استمراره فيه ، فيجوز أن يستنيب فى تقريره ويكون موقوفا على امضاء الوزير وتنفيذه. ولا يجمع المستناب بين الأمرين ليكون التقليد مقصورا على التقرير والتنفيذ ؛ كان فيه متجوزا إلا أن يؤمر به فيصير الأمر متجوزا إلا عن اضطرار يزول معه حكم الاختيار

والقسم الثالث : ان يكون التقليد فيما بعد عنه و يتعذر استمراره فيه . فيجوز ان يستنيب فيه من يجمع بين تقريره وتنفيذه ، اذا تكاملت فيه ثلاثة شروط : احدها الكفاية التى تنهض بما فى التقرير . والثانى : الهيبة التى يطاع بهافى التنفيذ . والثالث : الامانة التى تكف عن الاسترشاء والخيانة . بعد تكامل الشروط المعتبرة فى جميع الولايات وهى ثلاثة : العقل والديانة والمروءة . فلا فسحة فى تقليد من اخل بأحدها لقصوره عن حقها وخروجه من اهلها . وانما يختلف ماسواها باختلاف الولايات وإن كانت هذه مستحقة فى جميعها . وقد قال كسرى ابرويز : من اعتمد على كفاة السوء ؛ لم يخل من رأى فاسد . وظن كاذب ، وعدو غالب . وقد قال بعض الحكماء : لاتستكفين مخدوعا عن عقله ؛ والمخدوع من بلغ به قدر لايستحقه ، وأثيب ثوابا لايستوجبه

واما تقليد التدبير : فهو النظر فيما استقرت رسومه وتمهدت قواعده

وهو مشترك بين الوزير وبين الناظر فيه : لكن يختص الوزير بمراعاته ، والناظر بمباشرته . وهو ضربان : احدهما تدبير الاجناد ، والثاني تدبير الاموال

فاما تدبير الاجناد فلا يستغني الوزير عن تقليد سفير فيه ؛ وإن كانوا يلاقونه ليحفظ بالسفير حشمة وزارته : ولا يقف اغراض اجناده ؛ وقد انصان عن لغط كلامهم وجفوة طباعهم . والاغلب على تدبيرهم الرأي والسياسة فيعتبر في المختار لهذا التقليد ستة شروط : احدها الهيبة التي تقودهم الى طاعته : لأنه يقوم بتدبير ذوي سطوة فاحتاج معهم الى قوة الهيبة : والثاني ان يكون من ذوي الرأي والسياسة ؛ ليقودهم برأيه الى الصواب وتوقفهم سياسته على الاستقامة : والثالث ان يكون متوصلا الى استعطاف القلوب واجتماع الكلمة ؛ ليسلموا من اختلاف او منافرة : والرابع ان يكون بينه وبين الاجناد ، مناسبة في الطباع ومشاكلة في الاخلاق ، يمتزجون بها في الموافقة ولايختلفون فيها بالمباينة : والخامس ان يكون سليم الباطن صحيح المعتقد ، لأنه يصير اخص بهم ويصيرون اطوع له : والسادس ما اختلف باختلاف الحال ، فان كان في زمان السلم اعتبر فيه الأناة والسكون ، وان كان في زمان الحرب اعتبر فيه الاقدام والسطوة ؛ ليكون مطبوعا على مايضاهي حال زمانه . فقد قيل : خير السجايا ما وافق الحاجة . فاذا ظفر بمن استكملها ـ وبعيد أن يظفر به إلا ان يعان بالتوفيق ـ وجب تقليده ؛ ولزمت مناصفته في الحقوق التي له وعليه ليدوم ويستقيم . وقد قيل في منثور الحكم : من قضيت واجبه أمنت جانبه . وقيل : اغن من وليته عن الخيانة ، فليس يكفيك من لم تكفه

واما تدبير الاموال : فالوزير يصان عن مباشرتها ؛ وانما يحفظ دخلها بالهيبة والاستظهار ؛ ويضبط خرجها بالحاجة والاضطرار . وللتقليد على كل واحد منهما شروط

فأما شروط التقليد على مباشرة دخلها : فخمسةشروط: احدها ان يكون مطبوعا على العدل ، لينصف و ينتصف : و الثانى ان يكون متدينا بالامانة : ليستوفى و يوفى: و الثالث ان يكون كافيا ، ليضبط بكفايته و لا يضيع بعجزه : و الرابع ان يكون خبيرا بعمله ؛ يعرف وجوه موارده و اسباب زيادته : والخامس ان يكون رفيقا بمعاملته غير عسوف ولا اخرق . حكى ان الاسكندر كتب الى معلمه ليستشيره فى عماله . فكتب اليه : من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجند ، و من كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج . و وصف عمر بن عبدالعزيز زياداً فقال : كان يجمع جمع الذرة ، و يحنو حنو الام البرة . وهذه احسن سيرة لعامل ، و ألطف حالة لمعامل ، يحظى به من ولاه و يسعد به من ولى عليه . و بمثلها يعم الصلاح و تتم الاستقامة

و اما شروط التقليد على مباشرة خرجها بعد الامانة التى هى مشروطة فى كل ولاية ، فمعتبرة باحوال الخرج . و ينقسم ثلاثة اقسام : احدها ما كان راتبا عن رسوم مستقرة كأرزاق الجيوش ؛ فللتقليد عليه شرطان ، معرفة مقاديرها ، و معرفة مستحقيها : و القسم الثانى ما كان عارضا عن أمور تقدمتها ، و الناظر مأمور بها كالصلات و حوادث النفقات ، فللتقليد عليه شرطان ، وقوفها على الأوامر ؛ و معرفة اغراض الآمر : و القسم الثالث ما كان عارضا فوض الى رأي الناظر و وكل الى تقريره ، كالمصالح و النفقات و التقليد عليه اوفى شروطها ، لوقوفها على اجتهاده و تقديره ؛ فيحتاج مع الامانة الى ثلاثة شروط ، احدها معرفة وجوه الخرج حتى لا يصرف فى غير حق . و الثانى الاقتصاد فيه حتى لا يفضى الى سرف و لا تقصير ، و الثالث استصلاح الاثمان و الاجور في غير تحيف و لا غبن

فصل

(فى العزل)

و أما العزل فضربان :

أحدها : ما كان من غير سبب فهو خارج عن السياسة . لا ن للافعال و الاقوال أسباباً إذا تجردت عنها كان الفعل عبثاً ، و الكلام لغواً لا يقتضيه رأى حصيف ، ولا توجبه سياسة لبيب . و قد قيل : العزل أحد الطلاقين . فكما أنه لا يحسن الطلاق لغير سبب كذلك لا يحسن العزل لغير سبب . و إذا لم يثق الناظر باستدامة نظره مع الاستقامة عدل عنها إلى النظر لنفسه . فعاد الوهن على عمله وما يكون هذا العزل إلا عن فشل أو ملل . وقيل : ليس جزاء من سرك أن تسوءه . وقال بعض الحكماء : من حسن وداده قبح استفساده.

والضرب الثانى: أن يكون العزل لسبب دعا اليه . وأسبابه تكون من ثمانية أوجه . أحدها أن يكون سببه خيانة ظهرت منه . فالعزل من حقوق السياسة مع استرجاع الخيانة و المقابلة عليها بالزواجر المقومة ؛ ولا يؤاخذ فيها بالظنون والتهم . فقد قيل : من يخن يهن . والوجه الثانى أن يكون سببه عجزه وقصور كفايته . فالعمل بالعجز مضاع . و قد قيل العجز نائم والحزم يقظان . وهو نقص فى العاجز . وان لم يكن ذنباً فلا يجوز فى السياسة إقراره على العمل الذي عجز عنه . ثم روعى عجزه بعد عزله ، فان كان لثقل ما تقلده من العمل جاز أن يقلد ما هو أسهل . وان كان لقصور منته وضعف حزمه لم يكن أهلا لتقليد ولا عمل . وقد روي عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انه قال : لا تلزموا أنفسكم حق من لم يلزم نفسه حقكم . والوجه الثالث أن يكون سبب اختلال العمل من عسفه أو من خرقه : فهذا العمل زائد على الكفاية وخارج عن السياسة . والوزير المقلد فيه بين خيارين . إما أن يعزله بغيره

و إما أن يكفه عن عسفه و خرقه ان كف ؛ و يجوز أن يكون مرصداً لتقليد ما تدعو السياسة فيه إلى العسوف لمن شاق و نافر . فقد قيل : لكل بناء اس و لكل تربة غرس . و الوجه الرابع أن يكون سببه انتشار العمل به من لينه وقلة هيبته ، فهذا السبب موهن للسياسة و الوزير فيه بين خيارين . إما أن يعزله بمن هو أقوى و أهيب ، و اما أن يضم اليه من تتكامل به القوة و الهيبة، وخياره فيه معتبر بالاصلح. و يجوز أن يقلد بعد صرفه ما لا يستضر فيه بضعفه . و قد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا خير فى معين مهين ولا فى صديق ضنين . و الوجه الخامس أن يكون سببه فضل كفايته و ظهور الحاجة اليه فيما هو أكثر من عمله ، فهذا أجمل وجوه العزل و ليس بعزل في الحقيقة ، و إنما هو نقل من عمل إلى عمل هو أجل منه ، فصار بهذا العزل زائد الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناس فى العمل رجلان ؛ رجل يجل به العمل لفضله ورياسته. و رجل يجل بالعمل لنقصه و دناءته . فمن جل به العمل ازداد تواضعاً و يسراً ، و من جل بالعمل ازداد به شرفا و كبراً . و الوجه السادس أن يكون سببه وجود من هو أكفأ منه ، فيراعى حال الأكفاء . فان كان فضل كفايته مؤثراً في زيادة العمل به كان من لوازم السياسة ، و لم يسغ فيها إقراره على عمله . و إن لم يؤثر في زيادة العمل كان عزل الناظر من طريق الأولى في تقديم الأكفاء ، و تخير الأعوان . و إن جاز في السياسة إقرار الناظر على عمله لنهوضه به . وقد قيل : اذا ذهب المميز هلك المبرز . و الوجه السابع أن يكون سببه أن يخطب عمله من الكفاة من يبذل زيادة فيه ؛ فلا يجوز عزله يبذل الزيادة حتى يكشف عن سببها ، فربما يخرجه بها الباذل لرغبة فى العمل أو لعداوة فى العامل . فان لم يظهر لها بعد الكشف موجب لم يجز فى السياسة عزله بهذا البذل الكاذب . وكان الباذل جديراً بالابعاد لابتدائه بالأفعال . فان ظهر موجب الزيادة لم يخل من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير

الناظر فيجب عزله . والوزير بعد عزله بين خيارين : إما أن يقلد الباذل ، أو يقلد غيره من الكفاة : والقسم الثانى أن يكون موجبها فضل كفاية الباذل ، فيجب عزله بالباذل دون غيره : والقسم الثالث أن يكون سببها عسف الباذل وخرقه ؛ فلا يجوز فى السياسة عزل الناظر ولا تقريب الباذل ، فربما مال الى الزيادة من تعاصى عن العزل فعزل ، وقد فصار هو العاسف المجازف. والوجه الثامن أن يكون سببه أن الناظر مؤتمن فيخطب عمله ضامن ؛ فتضمين الأعمال خارج عن قوانين السياسة العادلة . لأن المؤتمن عليها اذا كان كافياً استوفى ما وجب ، وكف عما لم يجب . وهذا هو العدل .والضامن إن ضمنها بمثل ارتفاعها لم يؤثر ، وإن ضمنها بأكثر منه تحكم في عمله وكان بين عسف أو هرب ؛ كأنه ضمن ليغنم لا ليغرم . حكى أن المأمون : عزم على تضمين السواد وعنده عبيدالله بن الحسن العنبري القاضى . فقال له : ياأمير المؤمنين : إن الله تعالى قد دفعها اليك أمانة ، فلا تخرجها من يدك قبالة . فعدل عن الضمان

فهذا تفصيل ما تعلق بوزارة التفويض من عقد وحل وتقليد وعزل .

فصل

(وزارة التنفيذ)

وأما وزارة التنفيذ : فهى أخص ، لقصورها عما اشتملت عليه وزارة التفويض واختصاصها من عموم التفويض بأربعة قوانين :

فالفصل الاول من قوانينها : السفارة بين الملك وأهل مملكته ، لأن الملك معظم بالحجاب ، مصون عن المباشرة بالخطاب ، فاقتضى أن يختص بسفير محتشم ؛ ووزير معظم ، يطاع فيما يورده عنه من الاوامر والنواهى ، ويهاب فيما يتحمله اليه من المطالب والمباغى ؛ ليكون للملك لساناً ناطقاً ، وأذناً واعية.

وهذه السفارة مختصة بخمسة أصناف. أحدها : السفارة بين الملك و أجناده، فيحملهم على أوامره ونواهيه ويتنجز لهم من الملك ما استوجبوه وسألوه؛ ويحتاج فى سفارته معهم إلى أن يجمع بين اللين والعنف. والخشونة واللطف، لانقيادهم إلى طاعته بالرغبة والرهبة . والثانى السفارة بين الملك وعماله، فيستوفى نظارة الاعمال ويتصحف أحوال العمال ليستدرك خللا ان كان ويستديم صلاحاً إن وجد؛ ويحتاج فى هذه السفارة إلى استعمال الرهبة خاصة ليكفهم عن الخيانة ويبعثهم على الامانة. والثالث السفارة بين الملك ورعيته ليتصدى بانصافهم؛ ويصغى إلى ظلاماتهم، فيمضى ما تيسر له وينهى ما تعسر عليه. ويحتاج فى هذه السفارة إلى استعمال اللين واللطف، ليصلوا إلى استيفاء الظلامة، ويستدفعوا ذل الاستضامة . والرابع السفارة فى استيفاء حقوق السلطنة التي للملك وعليه من غير مباشرة قبض ولا تنقيص. ويحتاج في هذه السفارة إلى الرهبة فيما يستوفيه للملك، والى اللطف فيما يتنجزه من الملك. والخامس السفارة فى اختيار العمال ومشارفة الاعمال، لينهى حال من يرى تقليده وعزله من غير أن يباشر تقليداً ولا عزلا، لأن التقليد والعزل داخل فى وزارة التفويض وخارج عن وزارة التنفيذ، والملك هو الذي يأمر بالتقليد والعزل ان لم يباشره. وشروط هذه السفارة : أن يكون جيد الحدس، صحيح الاختيار، قليل الاغترار، عارفا بكفاءة العمال، ومقادير الاعمال، ليحمد اختياره ويقل عثاره.

فصل

(الرأى والمشورة)

والفصل الثانى من قوانين هذه الوزارة : أن يمد الملك برأيه ومشورته، فان الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محجوب الشخص عن مباشرة

الأمور . فصار محجوب الرأى عن الخبرة بها . فاحتاج الى بارز الشخص بالمباشرة . ليكون بارز الرأى بالخبرة . فليس الشاهد كالغائب : ولا المخبر كالمعاين . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبر كالمعاينة » . والوزير أخص بهذه المرتبة ، فكان أحق بالرأى والمشورة . وذكر فى كتب الفرس : إن للوزير على الملك ثلاثاً : رفع الحجاب عنه ، واتهام الوشاة عليه ، وافشاء السر اليه . وقيل في حكمة آل داود : الفضة والذهب يثبتان القدم ، وأفضل منهما المشورة الصالحة . وللوزير أن يستشير فيما يشاور فيه الملك اذا لم يكن سراً مكتوماً . وليس لغير الوزير أن يستشير فيما يستشار لوقوع الفرق بينهما من وجهين . أحدهما : أن الوزير مختص من مصالح الملك بما يقصر عنه من عداه . فلزمه من الاستظهار مالا يلزم من سواه . والثانى : ان استشارة الوزير عائدة الى مصالح الملك فعمت ، واستشارة غيره عائدة الى رأيه فخصت ، ويختلف أهل الشورى باختلاف الأرب المقصود . كما قال الحكماء : شاوروا الشجعاء فى أولى العزم ، والجبناء فى اولى الحزم : لتخرج من معرة تقصير الجبان ، وتهور الشجعان ، ويتخلص لك من الرأيين نتيجة الصواب . وللوزير فى المشورة حالتان . احداهما : ان يبتدئه الملك بالاستشارة ، فيلزمه ان يشير برأيه فيها سواء اختصت بملكه او تعدته الى غيره . وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه : ربما اخطأ البصير قصده ؛ واصاب الاعمى رشده . وعلى الوزير فيها حقان . احدهما اجتهاد رأيه في فى ايضاح الصواب . والثانى ابانة صحته بتعليل الجواب . ليكن محتجا فيكفى توهم الزلل ويسلم من مظنة الارتياب . والحال الثانية : ان يبتدىء الوزير بالمشورة على الملك . فله فيها حالتان . احداهما ان لا يتعلق بمشورته اجتلاب نفع ولا استدفاع ضرر فهذا تجوز من الوزير وتبسط على الملك ان انكره فبحقه . وان احتمله فبفضله . فقد قيل : كثرة النصح تهجم على سوء الظن

والثانية ان يتعلق بمشورته اجتلاب نفع واستدفاع ضرر . فان اختص بالمملكة كان من حقوق الوزارة وإن جاوزها كان من نصح الوزير . وعليه أن يذكر سبب ابتدائه ويوضح صواب رأيه . وإذا استقر الاحزم على مااقتضاه الرأى لزمه فيما يؤدى به من الاستشارة ويبدى به من المشورة أن يكتمه على كل خاص وعام لأمرين . احدهما : ان الرأى يجب أن يظهر بالأفعال دون الاقوال لأن ظهوره بالفعل ضرر وظهوره بالقول خطر . وقد قيل: من وهن الأمر إعلانه قبل احكامه . والثانى : أنه من أسرار الملك الذى يجب أن تكتم في الصدور وتصان فى الظهور للجمع بين تأدية الامانة وطلب السلامة . فان فى إفشاء أسرار الملك خطراً به وبمن أفشاها . وقد قيل : كشف الاسرار من شيم الاشرار . فلذلك قيل : الواقية خير من الراقية . ولقل ماتعفوا الملوك عمن يفشى أسرارها ، لتردده بين خيانة وجناية . وأحسن أحواله فيها ان سلم أن يغض عنه فيذل أو يخفي فيقل . وقد قيل فى بعض أسفار بنى اسرائيل : لسان الجاهل وقلبه واحد . وقيل فى منثور الحكم : لسان الجاهل مفتاح حتفه . ولذلك قيل : صدور الاحرار قبور الاسرار . وقد يسعد بكتم أسرارهم من تعرى عن غيره من الفضائل ، وتجرد عما سواه من الوسائل ، لأنه قد صار خازناً لأهل الذخائر ، ومؤتمناً على أنفس الودائع : إذا سلم من الادلال بها . فلن تزل الاقدام عند الملوك بمثل الادلال . ولقل مدل سلم من ذل . ولأن تزداد انقباضاً إذا بسطه فتزداد اكراماً أولى بذى الحصافة من ضدها . وقد قيل : من بسطه الادلال قبضه الاذلال . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا زادك الملك تأنيساً فزده اجلالا .

فصل

(عناية الوزير بالملك)

والفصل الثالث من قوانين هذه الوزارة : أن يكون عيناً للملك ناظرة وأذناً سامعة ، ينهى ما شاهد على حقه ؛ ويخبر بما سمع على صدقه : لأنه قد سوهم بالملك وميز بالاختصاص وندب للمصالح . فلزم أن يتخصص بمصالح الملك ؛ فيقوم مقامه فى مشاهدة ما غاب وسماع ما بعد لتقدمه على من سواه ، وعليه في ذلك ثلاثة حقوق . أحدها : أن يديم الفحص عن أحوال المملكة حتى يعلم ما غاب كعلمه بالحاضر ؛ ويعلم ما خفي كعلمه بالظاهر ؛ فلا يتدلس عليه حق أمر من باطله ، ولا يشتبه عليه صدق قول من كذبه . فقد قيل : الحق أبلج والباطل لجلج ، فان قصر فيها حتى خفيت أو استرسل فيها حتى تدلست كان مؤاخذاً بجرم التقصير وجريرة الضرر . والثانى : أن لا يعجل مطالعة الملك بها ولا يؤخرها ـ وإن جاز تأخير العمل بها لأن عليه الانهاء ، وليس عليه العمل . وقد قيل فى حكمة آل داود عليه السلام : الذى يكتم جهله ؛ خير من الذى يكتم حكمته . وإذا كان منه بمنزلة عينه الناظرة وأذنه السامعة التى يتعجل العلم بها ، وجب أن يجري معه على حكمها ليستدرك الملك ما يجب تعجيله ، ويقدم الرؤية فيما يجوز تأخيره ، فان أخر الوزير اعلام الملك بها وقد حسم ضررها كان للنصيحة مؤدياً ؛ ومن الملك على وجل. ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض فى قيامه بتدبيرها دون المطالعة بها ، لأن ذلك مقصور على الانهاء وذلك مندوب للعمل . والثالث : يوضح له حقائق الامور ويساوى فيها بين الصغير والكبير ، ولا يمايل قريباً ولا يتحيف بعيدا ، ولا يعظم من الامور صغيراً ولا يصغر منها عظيما ، فان من خاف

من صغار الامور أن تصير كباراً أو من كبارها أن تعود صغاراً . أخبر بحقائقها فى المبادىء مخبراً ، وفى الغايات مشيراً . فان أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبادىء ، كان تدليساً لخبره بمشورته ، فلم يؤد الامانة فى خبره . وان لم يكن فى مناصحته . فكان بالانكار حقيقاً والذم جديراً . وقد قيل : رب صبابة غرست من لحظة ، وحرب جنيت من لفظة .

فصل

(حرصه على مصالح الملك)

والفصل الرابع من قوانين هذه الوزارة : أن يفتدي راحة الملك بتعبه ، ويقي دعته بنصبه ، ولا يغيب إذا أريد ، ولا يسأم إذا أعيد : لانه لسان الملك اذا نطق ، وعينه إذا رمق ، ويده إذا بطش ، فلا تبعد عن دعائه ، ولا تضجر من ندائه ، لأن عوارض الملك من هواجس أفكاره وتقلب خاطره . وقد يتجدد مع الاوقات مالا يعرف أسبابه ، ولا تتعين أوقاته . فليكن على رصد منها حتى لا تقف به أغراض الملك فيفضى إلى نفور أو ضجر ، وهو من كل واحد منهما على خطر . لأنه قد يؤاخذ بالجريرة قبل ظهورها ؛ ويعاقب على الصغيرة مثل كبيرها ، إذا حكم بالهوى ووثب بالقدرة. ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض الذي يجوز أن يتأخر بمباشرة الامور ؛ عن مواصلة الحضور . وهذا الوزير مقصور على الحضور دون العمل فصار هذا أكثر نقلا ؛ وذلك أكثر عملا . وربما مل الملازمة فأعقبته أسفاً إذا فارقها ، لأن فى ملازمته للملك نصبا يقترن بعز ، وفى متاركته راحة تؤول إلى ذل ؛ وهماماهما فى التباين . فليختر لنفسه ما وافقها من عز يجتذبه بالكد. او ذل يؤول اليه بالدعة . فانه إن صبر على اعادة الملك ظفر بارادته من الملك

وهو على الضمان ان خالفها . وقد قال أنوشروان : ما استنجحت الامور بمثل الصبر، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر . وقد قيل : من خدم السلطان خدمه الاخوان . فاطرد على هذا التعليل : ان من تنكر له السلطان خذله الاخوان . لأنه متبوع على تحكمه ، ومساعد على توهمه

فهذا ما اختص بقوانين وزارة التنفيذ بعد ما قدمناه من قوانين وزارة التفويض، ثم يختلفان فى اصل التقليد من ستة اوجه . احدها ان الملك يقلد وزير التفويض فى حقوقه وحقوق رعيته ، ويقلد وزير التنفيذ بمضيها بأوامر الملك وعن رأيه . والثانى أن وزارة التفويض تفتقر إلى عقد يصح به نفوذ أفعاله ؛ ووزارة التنفيذ لاتفتقر إلى عقد لانه فيها مأمور بتنفيذ ماصدر عن أمر الملك . والثالث ان وزير التفويض مأخوذ بدرك ماامضاه . والرابع ان وزير التفويض لاينعزل الا بالقول او مافى معناه دون المتاركة لانه قد تملكها بمباشرة الأمور : ووزير التنفيذ ينعزل بالمتاركة لأنه مأمور . والخامس أن وزير التفويض لاينعزل ان كف وترك حتى يستعفي الملك منها لأنه مستودع الاعمال فلزمه ردها الى مستحقها . ووزير التنفيذ يجوز ان ينعزل بعزل نفسه بالكف والمتاركة لأنه لاشيء بيده فيؤخذ برده . والسادس ان وزارة التفويض تفتقر الى كفاية السيف والقلم لنهوضه بما اوجبهما ، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة اليهما لقصورها عنهما ، وانما يعتبر فيها ستة اوصاف وهى معتبرة فى كل مدبر ذي رياسة . وهى : الأبهة ، والمنة ، والهمة ، والعفة ، والمروءة ، وجزالة الرأى . وقد كان اكثر وزراء الفرس وزراء تنفيذ ؛ واكثر وزراء ملوك الاسلام وزراء تفويض . ووزارة التفويض استسلام ، ووزارة التنفيذ استمداد

فصل

(فى الحقوق)

ثم تشترك الوزارتان بعد التميز فى حقوق وعهود ، فاما الحقوق فثمانية احدها : أن يكون باعباء الوزارة ناهضاً ، وفى مصالح المملكة راكضا ، يقدم حظ الملك على حظ نفسه ، ويعلم ان صلاحه مقترن بصلاحه ، فلن تستقيم احوال الوزير مع اختلاف حال الملك لأن الفروع تستمد اصولها ولو استقامت لكان ميلها وشيكا . وقد قيل فى منثور الحكم : لاتقم بربع منتقم . والثانى : أن يكون على الكد والتعب قادرا ، وفى السخط والرضا صابرا ، لاينفر اذا اوحش فان نفوره عطب ـ وليتوصل الى راحته بالتعب والى دعته بالنصب ؛ ولذا قيل : علة الراحة قلة الاستراحة . وقال عبد الحميد: أتعب قدمك فكم تعب قدمك . فان تشاغل براحته ومال الى لذته ، سلبها بالتنكر ؛ وعدمها بالتغير ، فضاع واضاع ، وكان من امره على خطر وقد قيل فى منثور الحكم : على خطر من لم يخاطر فكيف بالمغرور المخاطر . وقد قيل فى بعض اسفار بني اسرائيل : الذى يحب الشهوات يبغض نفسه . والثالث : ان يكون لاحسان الملك شاكرا ، ولاساءته عاذرا ، يشكر على يسير الاحسان ؛ ويعذر فى كثير الأساءة ، ليستمد بالشكر احسانه . ويستدفع بالعذر اساءته . فان عدل عنهما كان منه على ضدهما . وقد قيل : احق الناس بالمنع الكفور ، وبالصنيعة الشكور . والرابع : ان يظهر محاسنه ان خفيت ويستر مساويه ان ظهرت ، لأنه بمحاسنه معلوم موسوم ، وبمساويه مقروف مرسوم ، يشاركه فى حمد محاسنه ، ويؤآخذ بذم مساويه . وربما استرسل الملك لثقته بالاحباب فار تكب بالهوى ما يصان عن اذاعته ، وكان الوزير احق بستره عليه ، لأنه الباب المسلوك اليه ، مسائر غير مجاهر . فقد

قيل : النصح بين الملأ تقريع . والخامس : ان يخلص نيته في طاعته . ويكون سره كعلانيته : فان القلوب جاذبة تملك اعنة الاجساد : فان اتفقا والا فالقلب اغلب ، وهو الى مراده اجذب ، كما قال الشاعر :

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

فاخلص قلبك ليطيعك جسدك ، واحسن سريرتك لتحسن علانيتك : فان القلوب تنم على الضمائر فتهتك استارها ؛ وتذيع اسرارها . وقد روى مجاهد عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : « فى ابن آدم مضغة اذا صلحت صلح الجسد ، واذا فسدت فسد الجسد ، ألا وهى القلب » . وقد قيل فى بعض صحف بنى اسرائيل : قلب الانسان يغير وجهه خيرا كان اوشرا . والسادس : ان لايعارض الملك فيمن قرب فاستبطن ولايماريه فيمن حط ورفع ، فانه يحكم بقدرته ؛ ويأنف من معارضته . فربما انقلب بسطوته اذا عورض ؛ ومال بانتقامه اذا خولف ، فبوادر الملوك تسبق تدبيرها وتدحض أسيرها ، فان سلم من الخطر لم يسلم من الضجر ، ولو سلم منهما وهو نادر ـ فمقت المعارض مركوز فى الغرائز ، وكفي بالمقت عقبى . وقال بزرجمهر : يجب للعاقل ان لايجزع من جفاء الولاة وتقديمهم الجاهل عليه ، إذ كانت الاقسام لم توضع على قدر الاخطار ، فان حكم الدنيا ان لا تعطى احدا مايستحقه ، لكن تزيده وتنقصه . والسابع : ان يتقاصر عن مشاكلة الملك فى رتبته ، ويقبض نفسه عن مثل هيئته : فلا يلبس مثل ملابسه . ولايركب مثل مراكبه ، ولا يستخدم مثل خدمه ؛ فان الملك يأنف ان موثل ، وينتقم إن شوكل ؛ ويرى أنها من أحواله المجتاحة ، وحشمته المستباحة ، وليعض عنها بنظافة لباسه وجسده من غير تصنع ؛ فان النظافة من المروءة والتصنع للنساء . ليكن بالسلامه محفوظا ، وبالحشمة ملحوظا . والثامن : ان يستوفى للملك ولايستوفى عليه ، ويتأول للملك ولا يتأول عليه . فان الملك اذا

ار اد الانصاف كان عدل اقدر ، و إن لم يرده فيد الوزير معه اقصر . و إنما أراد الوزير عونا لنفسه ، ولم يرده عونا على نفسه . فان وجد الى مساعدته سبيلا سارع اليها ، وإن خاف ضررها و انتشار الفساد بها تلطف فى كفه عنها ان قدر : وإن تعذر عليه تلطف فى الخلاص منها ان قدر ، ولايجهر بالمخالفة ماكان على رغبته فى النظر . سئل بعض حكماء الروم : عن اصلح ما عوشر به الملوك . فقال : قلة الخلاف وتخفيف المؤنة . فلذلك لم تصحب الملوك إلا على اختيارهم ، ولم يتمسكوا إلا بمن وافقهم على آرائهم . وليس لمن خالفهم حظ منهم ، وإنما كان على خطر معهم ، واذا روعيت أحوال الناس وجدوا لا يأتلفون إلا بالموافقة فكيف بذوي القدرة من الملوك . وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عذبوا أولا فان جناهم مر
كم من رياض لا أنيس بها تركت لأن طريقها وعر

وقال بعض الحكماء : حرز الناس ثلاثة : إلفة تجمعهم ، وطاعة تمنعهم ، ومناصحة تنفعهم . فانهم إن تفرقوا تفرقت أمورهم ، وإن عصوا ظهر نفورهم ، وإن لم يناصحوا وغرت صدورهم

فصل

(تابع العهود)

فأما العهود الموقظة ، فسأقول وأرجو أن يقترن بالقبول . اجعل أيها الوزير لله تعالى على سرك رقيباً يلاحظك من زيغ فى حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيباً يكفك عن تقصير فى أمره ، ليسلم دينك فى حقوق الله تعالى ، وتسلم دنياك فى حقوق سلطانك ، فتسعد فى عاجلتك وآجلتك . فان

تنافى اجتماعهما لك . فقدم حق الله تعالى على حق الملك . فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه : فآثروا ما يبقى على ما يفنى». وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس » . وقال بعض الحكماء : كل امرئ يجري من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله ، وتنطوي عليها صحيفة عمله ، فخذ من نفسك لنفسك . وقس يومك بأمسك . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يتمثل كثيراً بهذه الأبيات :

إنما النـاس ظاعن ومقيم   فالذي بان للمقيم عظه
ومن الناس من يعيش سويا   ساهر الليـل عامل اليقظه
فاذا كان ذا حيـاء ودين   حاذر الموت واستحى الحفظه

حق عليك أيها الوزير : أن تكون بالرعية خبيراً . والى أحوالهم متطلعاً ؛ وبهم على نفسك وعليهم مستظهراً ، لأنهم من بين من تسوسه أو تستعين به لتعلم ما فيه من فضـل ونقص ، وعلم وجهل ، وخير وشر ، وتتحرز من غرور المتشبه ، وتدلس المتصنع ؛ فتعطى كل واحد حقه ، ولا تقصر بذي فضل ، ولا تعتمد على ذي جهل . فقد قيـل : من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذى المحال .

وافرق بين الأخيار والأشرار . فان ذا الخير يبنى ، وذا الشر يهـدم .

واحذر الكذوب ؛ فلن ينصحك من غش نفسه ، ولن ينفعك من ضرها . وقد قيل : من ضيع أمره فقد ضيع كل أمر ، ومن جهل قدره جهل كل قدر . ولا تستكفين عاجزاً فيضيع العمل ، ولا شرهاً فيضرك باحتجانه. وقد قيل : ليعد من البهائم من لم تكن غايته من الدنيا إلا نفسه . ولا تعنى بمن لا يحافظ على المروءة ؛ فقل ما تجد فيه خيراً لزهده فى صيانة نفسه ، وميـله

الى خمول القدر . و بعيد ممن أسقط حق نفسه أن يقوم بحق غيره . و صعب على من ألف اسقاط التكلف أن يحول عنه . و قد قيل فى حكم الهند : ذو المروءة يرتفع بها و تاركها يهبط ، و الارتقاء صعب والانحطاط هين . كالحجر الثقيل الذي رفعه عسير و حطه يسير . وقال بعض البلغاء : أحسن رعاية ذوى الحرمات ، و اقبل على أهل المروءات ، فان رعاية ذوى الحرمة ، تدل على كرم الشيمة ، و الاقبال على ذوي المروءة ، يعرب عن شرف الهمة

اختبر أحوال من استكفيته لتعلم عجزه من كفايته : واحسانه من اساءته . فتعمل بما علمت من اقرار الكافى ، وصرف العاجز ، وحمد المحسن : و ذم المسيء . وقد قيل : من استكفي الكفاة ؛ كفي العداة ، فان التبست عليك أمورهم . أوهنت الكافى ، وسلطت العاجز ؛ وأضعت المحسن ؛ وأغريت المسيء . ولأن يكون العمل غائباً فينصرف اليه فكرك ، أولى من أن يباشره عاجز أو خائن فيقبح بهما أثرك ، فاحذر العاجز فانه مضيع . و توق الخائن فانه يكدح لنفسه . وقال الشاعر :

اذا أنت حملت الخؤون أمانة فانك قد أسندتها شر مسند

اقتصر من الأعوان بحسب حاجتك اليهم ، و لا تستكثر منهم لتكثر بهم ، فلن يخلو الاستكثار من تنافر يقع به الخلل ، أو ارتفاق يتشا كل به العمل ، وليكن أعوانك و فق عملك ، فانه أنظم للشمل ، و أجمع للعمل ، و أبلغ للاجتهاد ، و أبعث على النصح . أنشدت لابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات و تلقي الرى فى النطف العذاب

هذب نفسك من الدنس ؛ تتهذب جميع أتباعك . و نزه نفسك عن

الطمع : تتنزه جميع خفائك . و توق الشر فان يزيدك إلا حرصاً إن أجدبت ، و نقصاً إن أكديت ، وهما معرة ذوى الفضل ، و مضرة أولى الحزم . وقد قيل : بحمدك لا بكفرك . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقتربت الساعة ؛ ولا يزداد الناس فى الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزداد منهم إلا بعداً » وقال محمود الوراق :

لا يغلبنك غالب الحرص   واعلم بأن الناس فى نقص
ألبس أخاك على تصنعه   فلرب مفتضح على النص .
ما كدت أفحص عن أخى ثقة   إلا عدمت كواعب الفحص

رض نفسك بمشارفة الأعمال ، يرهبك جميع عمالك ، و تنتظم به جميع أعمالك ؛ ولا تكل الى غيرك ما يختص بمباشرتك طلباً للدعة ، فتعزل عنه نفسك ، وتؤثر به غيرك ، فتكون من وفائه على غدر ؛ ومن نفسك على تقصير ، فان العطلة عقلة ، و الجواد اذا وقف راكضته البراذين . وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة ؛ فان الفراغ مفسدة . وقال عبدالحميد : ما زانك ما أضاع زمانك . ولا شانك ، ما أصلح شانك .

اجعل زمان فراغك مصروفا إلى حالتين . احداهما : راحة جسدك ، واجمام خاطرك ، ليكونا عونالك على نظرك . روى ان ابنا لعمر بن العزيز دخل عليه وهو نائم . فقال : ياأبت تنام ؛ والناس على بابك قيام . فقال : يابنى ان نفسى مطيتى وأخاف أن أحمل عليها فتقعد بى . والحال الثانية : أن تفكر بعد راحة جسدك واجمام خاطرك فيما قدمته من أفعالك ، وتصرفت فيه من أعمالك ، هل وافقت الصواب فيها فتجعله مثالا تحتذيه ، أو نالك فيها زلل فتستدرك منه ما أمكن وتنتهى عن مثله فى المستقبل . فقد قيل : من فكر أبصر . وقال بعض الحكماء : من لم يكن له من نفسه واعظ ، لم تنفعه المواعظ . ثم أصرف فكرك بعد ذلك إلى ماتستقبله من أفعالك : على أى تمضيه ؟ وماذا

تفعل فيه ؟ في تقديم الفكر على العمل ، احترازمن الزلل : لتكون على ثقة من الصواب ، فان عارضتك الاقدار لم تلم . فقد قيل : الامور إذا انفضت ، كالكواكب إذا انقضت . وقال النابغة الجعدي :

ألم تعلما ان الملامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولى فادبرا

اخفض جناحك لمن علا ، ووطىء كنفك لمن دنا . وتجاف عن الكبر تملك من القلوب مودتها . ومن النفوس مساعدتها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « لا وحدة أوحش من العجب » . وقيل لحكيم الروم : من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقاً ؟ قال : من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه . ولذلك قيل: التواضع فى الشرف، أشرف من الشرف

كن شكوراً فى النعمة ، صبوراً في الشدة ، لا تبطرك السراء ، ولا تدهشك الضراء ، لتتكافأ أحوالك ، وتعتدل خصالك ، فتسلم من طيش النظر وسكرة البطر ؛ فانها تنجلى عن ندم أو ضرر . فقد قال بعض الحكماء : العاقل لايستقبل النعمة ببطر ، ولا يودعها بجزع . وقيل فى منثور الحكم : اشتغل بشكر النعمة عن البطر بها . وقيل فى أمثال الهند : العاقل لايبطر بمنزلة أصابها ولا شرف ، كالجبل الذى لا يتزلزل وان اشتدت الريح ؛ والسخيف تبطره أدنى منزلة ؛ كالحشيش الذي يحركه أدنى ريح .

استدم مودة وليك بالاحسان اليه ، واستسل سخيمة عدوك بعد الاحتراز منه ؛ وداهن من لم يجاهرك بعداوته ، ويقاتلك بمثله ، فيطفي ثائرة عداوته . ويتواطأ لك بمجاملته . قيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : مداجاة الاعداء ، ومؤاخاة الاكفاء .

ولا تعول على التهم والظنون ، واطرح الشك باليقين . فقد قيل : لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . قال الشاعر :

اذا أنت لم تبرح تظن وتقتضى على الظن أردتك الظنون الكواذب

واختبر من اشتبهت حاله عليك ، لتعلم معتقده فيك ، فتدرى تصنعه منك ، فان الالسن لا تصدق عن القلوب لما يتصنعه المداجى ؛ ويتكلفه المداهن . كما قال عمرو بن الاهثم :

لسانك لى حلو ونفسك مرة وخيرك كالمرعاة في الجبل الوعر

وشهادات القلوب أصدق ، ودلائل النفس أوثق . وقد قيل فى منثور الحكم : للعين سر فى علم ما يسر . وقال ابراهيم بن المهدى :

تظل في عينه البغضاء كامنة فالقلب يكتمها والعين تبديها

والعين تعرف في عينى محدثها من كان من حزبها أو من أعاديها

فان وقفت بك الحال على الارتياب ، اعتقدت المودة فى ظاهره : وأخذت بالحزم في باطنه . وإذا أقنعك الاغضاء عن الاختبار ؛ فلا تتخطه ، فأكثر الامور تمشى مع التغافل والاغضاء . وقد قال أكثم بن صيفي : من شدد نفر ، ومن تراخى تألف ، والشرف فى التغافل . ولقلما جوهر المغتنى ، وقوطع المتغافل ؛ مع انعطاف القلوب عليه . وميل النفوس اليه ، وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق . روى معمر عن خلاد بن عبد الرحمن عن أبيه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله: فظننا أنه يسمى رجلا . فقال : أحبكم إلى الله أحبكم إلى الناس . ألا أخبركم بأبغضكم إلى الله: فظننا أنه يسمى رجلا. فقال: أبغضكم إلى الله أبغضكم إلى الناس».

شاور فى أمورك من تثق منه بثلاث خصال . صواب الرأى ؛ وخلوص النية ؛ وكتمان السر . فلا عار عليك أن تستشير من هو دونك ، إذا كان بالشورى خبيراً . فان لكل عقل ذخيرة من الرأى وحظاً من الصواب ، فتزداد برأي غيرك وإن كان رأيك جزلا كما يزداد البحر بمواده من الانهار وان كان غزيراً . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال .

لا مظاهرة أوثق من المشاورة » . وقد يفضل المستشير على المشير ، ويظفر بالرأى المشير ، لانها ضالة يظفر بها من وجدها من فاضل ومفضول . وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . وعول على استشارة من جرب الامور وخبرها ؛ وتقلب فيها وباشرها ، حتى عرف مواردها ومصادرها ، فلن يخفى عليه خيرها وشرها ، ما لم يوهنه ضعف الهرم . كالذى حكى عن أكثم بن صيفي وقد سأله قومه بنو تميم عن مادهمهم فى حرب يوم الكلاب . وقالوا : أشر علينا بالرأى ، فانك شيخنا وعميدنا وموضع الرأى منا . فقال : ان وهن الكبر قد شاع فى جميع بدنى ، وانما قلبي بضعة منى . وليس معى من حدة الذهن ما أبتديء له بالرأى : ولكن تقولون واسمع ؛ فانى أعرف الصواب إذا مر . وعول على ذوى الاسنان فان الحكمة معهم . وقد قال الشاعر:

إن الأمور اذا الاحداث دبرها دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

إن الشباب لهم في الأمر بادرة وللشيوخ أناة تدفع الزللا

واعدل عن اشارة من قصد موافقتك متابعة لهواك ، واعتمد مخالفتك انحرافا عنك ، وعول على من توخى الحق لك وعليك . فقد قيل فى قديم الحكم : من التمس الرخص من الاخوان فى الرأي ، ومن الأطباء في المرض ، ومن الفقهاء فى الشبهة ، أخطأ الرأي وزاد فى المرض واحتمل الوزر . ولا تؤاخذ من استشرت بدرك الرأى إن زل : فما عليه إلا الاجتهاد وان حجزته الأقدار عن الظفر . وقد قيل فى منثور الحكم : من كثر صوابه لم يطارح لقليل الخطأ

اختر لأسرارك من تثق بدينه وكتمانه . وتسلم من إذاعته وادلاله . لو قدرت على أن لا تودع سرك غيرك كان أولى بك وأسلم لك . لأنك فيها بين خطر أو حذر . وقد روى عطاء عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فان كل ذى نعمة محسود » . وقد قيل فى منثور الحكم : انفرد بسرك و لا تودعه حازماً فيزل ، و لا جاهلا فيخون . و العرب تقول : من ارتاد لسره فقد أذاعه

تثبت فيما لا يقدر على استدراكه ، فقلما تعقب العجلة إلا ندماً . روى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : « من تأنى أصاب أو كاد ، و من عجل أخطأ أو كاد » . و قيل فى حكم آل داود . من كان ذا تؤدة وصف بالحكمة. و قيل فى منثور الحكم : أناة فى عواقبها درك ؛ خير من عجلة فى عواقبها فوت

و قدّم ما قدرت عليه من المعروف ؛ فقلما يعقب الذنب إلا ندماً ، فان للقدرة غاية و لنفوذ الأمر نهاية ، فاغتنمها فى مكنتك تسعد بما قدمته ، و يسعد بك من أعنته . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت » . وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : انتهزوا هذه الفرص فانها تمر مر السحاب . و قال بعض الحكماء : من أخر الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها . و لذلك قيل : خير الخير أوحاه و قال الشاعر :

و عاجز الرأى مضياع لفرصته حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

و قيل فى حكم الفرس : لا خير فى القول إلا مع الفعل ، كما لا خير فى المنظر إلا مع المخبر . و قيل فى أمثال الهند : لا يتم حسن القول إلا بحسن العمل ، كالمريض الذى لا يبرأ بمعرفة الدواء حتى يتداوى

احذر قبول المدح من المتملقين : فان النفاق مركوز فى طباعهم : و يداجونك بهين عليهم ، فان نفقوا عليك غششت نفسك : وداهنت حسك . و صحفيك ما قيل فى منثور الحكم : سوق النفاق دائمة النفاق . و قال عبد الملك بن مروان لروح بن زنباع : لا تغتابن عندى أحداً ، فانى لا آمنك على غيبى ، و لا تفش

لى سراً ، فانني لا أثق بك فى مجلسى ، و لا تطرينى فى وجهى ، فانى إن قبلته منك غبنت عقلى ، و إن رددته عليك أسأت عشرتى ، و أنت أعرف بنفسك من غيرك فيما تستحق به حمداً أو ذماً ، ففاتح نفسك بما فيها ، فانك أعلم بمحاسنها ومساويها . وقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة : عجبت لمن قيل فيه الخير و ليس فيه كيف يفرح ، و عجبت لمن قيل فيه الشر و هو فيه كيف يغضب. و قال بعض الحكماء : من مدحك بما ليس فيك ، فحقيق أن يذمك بما ليس فيك. و قال بعض البلغاء : من أظهر شكرك فيما لم تأت اليه، فاحذره أن يكفر نعمتك فيما أسديت اليه، ففوض مدحك الى أفعالك فانها تمدحك بصدق إن أحسنت ، و تذمك بحق إن أسأت ، و لا تغتر بمخادعة اللسان الكذوب . فقد قيل : أبصر الناس من أحاط بذنوبه، و وقف على عيوبه . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى: ثمار الحكماء لأنفسهم . كتب حكيم الروم الى الاسكندر : لاترغب في الكرامة التى تنالها من الناس كرهاً ؛ و لكن فى التى تستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير

اعتمد بنظرك احماد سلطانك ، وشكر رعيتك ، تكن أيامك سعيدة ؛ وأفعالك محمودة ؛ و الناس بك مسرورين ، ولك أعواناً مساعدين ، و يبقى بعدك فى الدنيا جميل ذكرك ، و فى الآخرة جزيل أجرك ؛ واستعذ بالله من ضدها ؛ فيعدل بك الى صدها . فان الولايات كالمحك تظهر جواهر أربابها . فمنهم نازل مرذول ، وصاعد مقبول . روى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : « أحسنوا جوار نعم الله تعالى : فقل ما زالت عن قوم فعادت اليهم ». وكذلك قيل : ربما شرق شارب الماء قبل ريه . وتعرض رجل ليحيى بن خالد بن برمك وهو على الجسر بكتاب وسأله أن يختمه .فقال: ياغلام أختم كتابه مادام الطين رطباً . ثم أنشد :

اذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدرى السكون متى يكون

اذا نلت من سلطانك حظاً ؛ وأوجبت عليه من خدمتك حقاً ، فلا تستوفه . ودع لنفسك بقية يذخرها لك فيراها حقاً من حقوقك ؛ ليكن كفيل اداءها اليك ، فان استوفيتها صرت الى غاية ليس بعدها الا النقصان . وقد قال الشاعر:

اذا تم أمر بدا نقصه   توقع زوالا اذا قيل تم

واعلم انك مرصد لحوائج الناس لان بيدك أزمة الامور ، واليك غاية الطاب ؛ فكن عليها صبوراً تكن بقضائها شكوراً . ولا يضجرك طالبها وقد أملك ، ولا تنفر عليه ان راجعك ، فما يجد الناس من سؤال بدا . ولخير دهرك أن ترى مرجوا ، وأنشدت لأبي بكر بن دريد رحمه الله تعالى :

لا تدخلنك ضجرة من سائل   فلخير دهرك ان ترى مسئولا
لاتجبهن بالرد وجه مؤمل   فبقاء عزك ان ترى مأمولا
واعلم بأنك عن قليل صائر   خبرا فكن خبرا يروى جميلا

وقيل في الصحف الأولى: القلب الضيق لاتحسن به الرياسة ؛ والرجل اللئيم لايحسن به الغنى ؛ ولئن كانت الحوائج كالمغارم لمن استثقلها ، فهي مغانم لمن وفق لها ، وليس بغرم ما عاد بغنم ، ولابضائع ما اصطنع فى معروف . وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل مؤنة الناس عرض تلك النعمة للزوال » . واذا جعلت الوزارة غايات الأمور اليك منتهية ؛ وحوائج الناس عليك واقعة ، والقدرة لك مساعدة لانبساط يدك ، ونفوذ امرك ، ضرت بالتوقف والاعراض مخلا بحقوق نظرك ، واسعا على فوت فطنتك . وقد قال بهرام جور فى عهده الى ملوك فارس : انكم بمكان لامصرف للناس عن حوائجهم اليكم ، فلتتسع صدوركم كاتساع سلطانكم . فان ذخرك باصطناعه ابقى ، ودفعك به عن نعمتك أوقى

وقد قال علي بن الجهم :

اذا جـــدد الله لى نعمة شكرت ولم يرنى جاحدا
ولم يزل الله بالعـائدا تعلى من يجود بها عائدا
ابا جامع المـال وفرته لغيرك اذ لم تـكن خالدا
فان قلت اجمعه للبنـ ين فقد أفقرالولد الوالد
وان قلت اخشى صروف الزما ن فكن من تصاريفه واجدا

فاجعل يومك أسعد من أمسك ، وصلاح الناس عندك بصلاح نفسك ، ومل الى اجتذاب القلوب بالاستعطاف ، والى استمالة النفوس بالانصاف تجدهم كنوزاً في شدائدك ، وحرزاً فى نوائبك . وقال بعض الحكماء : من زرع خيرا حصد أجراً ، ومن اصطنع حرا استفاد شكرا . وقيل فى منثور الحكم : خير زاد القدرة اعتقاد المنن . قال الشاعر :

حصادك يوما مازرعت وانما يدان امرؤ يوما بما هو دائن

احذر دعوة المظلوم وتوقها ، ورق لها إن واجهك بها ، ولاتبعثك العزة على البطاش فتزداد ببطشك ظلما وبعزتك بغيا ، وحسبك بمنصوره عليك . وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده رضى الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اتقوا دعوة المظلوم فانما يسأل الله حقه وإن الله لا يمنع ذا حق حقه » .

كن للشهوات عزوفا تنفك من اسرها ، فان من قهرته الشهوة كان عبداً لها ، ومن استعبدته الشهوة ذل بها . روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من اشتاق الى الجنة سارع فى الخيرات ؛ ومن اشفق من النار لهى عن الشهوات » . وقيل لبعض حكماء الروم : ما الملك الاعظم . قال : ان يغلب الانسان شهوته . وقيل له : ما الفرق بينك وبين الملك . قال : الملك عبد الشهوات ، وانا مولاها ،

فكن بالزمان خبيرا تسلم من عثرته: فان الاغترار به مرد ، وقدم لمعادك تبق عليك ماادخرته : فلن تجد الا ماقدمت . وانك لتجازي بما صنعت ، واستقل الدنيا تجد في نفسك عزا فترضى اذا سخطت . وتسر اذا حزنت ، فلن يذل إلا طالبها ، ولن يحزن إلا صاحبها . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انا زعيم لمن اكب على الدنيا بفقر لاغنى فيه . وشغل لا انقطاع له » . وقد قال علي بن ابي طالب رضى الله عنه: احذروا الدنيا فانها غدارة مكارة ختارة خسارة تستنكح في كل يوم بعلا ، وتستقبل في كل ليلة اهلا ، وتفرق فى كل يوم شملا . وقال بعض الحكماء : ليكن طلبك للدنيا اضطرارا ، وفكرك فيها اعتبارا ، وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال عبد الحميد : طالب الدنيا عليل ، ليس يروى له غليل . وقال الشاعر :

فلا جزع ان راب دهر بصرفه　　وبدل حالا والخطوب كذلك

فما العيش الا مدة سوف تنقضى　　وما المال الا هالك وابن هالك

اجعل صلاح عملك ذخرا لك عند ربك ، وجميل سيرتك اثرا مشكورا فى الناس بعدك لتقتدي بك الاخيار ، ويزدجر بك الاشرار ، تكن بالثواب حقيقا : وبالحمد جديرا . فقد قيل: الاغترار بالاعمار ، من شيم الاغمار ، فان يبق بعدك الا ذكرك فى الدنيا ، وثوابك فى الآخرة ، فاظفر بهما ، واغتنم بقية عمرك لها ، تكن سعيدا فيهما ، فان الدنيا كاحلام نائم يستحليها فى غفوته ويلفظها بعد يقظته . وقد قيل فى الصحف الاولى : احرص على الاسم الصالح فانه لا يصحبك غيره . وقال الجاحظ : وليت خزانة كتب الرشيد وتصفحت كتبه فلم اجد كلمة الا وجدت لها نقيضة ، إلا كلمات جاءت عن فيلسوف العرب علي بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه : قيمة كل امريء مايحسن ، ومن جهل شيئاً عاداه . ولن يهلك امرؤ عرف قدره ، وكلما يتصور في الاوهام فالله بخلافه ، وبقية عمر الرجل لاثمن لها ولا قيمة ، لأنه يدرك بها مافاته ، ويحيي فيها ما اماته

فاغتنم ايها الوزير بقية ايامك ، باجمل افعالك : واستدرك فيها ماتقدم من سوء آثارك ، وكفر بها ما اسلفت من لجورك واغترارك ؛ فخواتيم الامور تعفي ما سبق حتى تتناساه النفوس ؛ وتتغاضى عنه العيون ، لأنها توكل بالأدنى وان جل ما يمضى ، واذا مدتك الاقدار بالتوفيق ، وغالبك العقل بالتلافي ، عدلت واعتدلت . ففزت فى آخرتك ، وسعدت فى آجلتك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما استودع الله احدا عقلا إلا استنقذه به يوما . فاذا عقلك عقلك عن الباطل فانت عاقل» .

وسأختم تحذيرك وانذارك : وأتبع تبصيرك وافكارك ، بما انذر به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو اوعظ نذير ؛ وابلغ تخويف وتحذير . روى عبدالله بن عبيد عن عمير الليثى عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ان من أشراط الساعة اذا رأيتم الناس اماتوا الصلاة واضاعوا الامانة ؛ واحلوا الربا ؛ واستخفوا بالدماء ؛ وباعوا الدين بالدنيا وشربت الخمور ؛ وعطلت الحدود ؛ واتخذوا القرآن مزامير ، واتخذت الأمانة مغنما ؛ والزكاة مغرما ، وكان الحلم ضعفا ، والولد غيظا ، وغاض الكرام غيضا ، وفاض اللئام فيضا ؛ وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة والأمناء خونة ، والقراء فسقة : وكان زعيم القوم ارذلهم ، وتشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وكذب الصادق ؛ وصدق الكاذب ، ولعن آخر هذه الأمة اولها . فليتوقعوا نزول البلاء بهم

وقد أوجزت لك أيها الوزير ما ان كان عملك به محيطا ذكرك ، وإن كنت غافلا عنه أنذرك ، وان يمدك بتوفيقه ، ويعينك على طاعته بجوده آمين .
تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم